الفوارس

حسان والطير الذهبي

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١

جمال شاهين

١٩٩٣

حسان

والطير الذهبي

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



جمال شاهين

حسان والطير الذهبي

حسان والطير الذهبي



حسان ابن التاجر عبد الرحمن

كان في ذلك الزمان البعيد في بلاد النيل تاجر مشهور ، وعنده مال وفير لا تأكله النيران، وما كان بخيلا على أهله والجيران ، وكان في نفس الأوان محبا للفقراء والمساكين ، وما يبخل عليهم بالصدقات والطيبات، وأعطاه رب العباد ثلاثا من الأولاد ، فأحسن تربيتهم وأجاد ، وما قصر في تعليمهم وحاد ، وكان يبذل الرخيص والغال من أجل أصدقائه وإخوانه التجار، فهو يعيش في نعم من رب البرية، وما كان مقصرا في الشكر والحمد والثناء على خالق السماء ، وله ولد يبلغ من السنوات خمسا وعشرين ، وهو معتدل القوام جميل الهيئة ذو حسن في النطق والكلام، وكما قيل كثير من التجار يرغبون بتزويجه من فتياتهم ؛ ولكنه يأبى ويحيد عن الزواج حتى يأذن رب الناس ، فيصرف أباه والناس عن مثل هذا الكلام ، وكان مع أبيه في الدكان ، فهو يتقن فن البيع والشراء وتحصيل الأموال ، وعندما يسأل عن سبب عدم رغبته في النكاح يقول : إني بهن راغب وما حرمت على نفسي ما أحل الله على عباده ؛ ولكني أرغب بزواج أنثى من غير هذه البلاد . فيعرض عليه التاجر الكبير عبد الرحمن بأن يجلب له عروسا شامية أو حلبية أو مقدسية مع رفقة من التجار .

فيرد على أبيه قائلا : يا أبتاه ! سأجلب عروسي بنفسي عندما يحين الأوان .

وكان الأب الكريم لا يحب الضغط عليه والأكراه خشية أن يسافر مع التجار للبحث عن امرأة يسكن إليها وتسكن إليه فيتركه ، ويجعل له الحرية والاختيار ، وكما تقول الأخبار كم من فتاة باعته هواها ، وعرضت نفسها حليلة له على سنة الله والكتاب ، فيعتذر لهن بأدب جم وكمال بأن الوقت ما حان ، هذا ما كان قبل مجيء تجار من بغدان ، ويسمع حديثهم الفتى المسمى حسان .

ذات يوم من الأيام كان صاحبنا في وليمة عند ابن أحد التجار الأصحاب ، وبعد تناول أصناف مختلفة من الطعام والشراب دار الحديث عن النساء والزواج والحسنوات ، وقيل في ذلك المجلس من أوزان الشعر أبيات وكثرت فيه الحكايات ، وكانت هذه الدعوة على شرف ابن

تاجر قادم من العراق ، فلما جاءه الدور في الكلام والأخبار قال : يا سادة يا كرام عندي حكاية عجيبة وغريبة في بلاد ما بين النهرين .

سكت القوم كأن على رأسهم الطير فقالوا : يا عراقي أسمعنا غرائب ما عندكم بعدما سمعت حكايات أهلنا ونيلنا ؟

فقال العراقي : آ .. اخوتي عندنا مدينة اسمها البصرة .. فيها أميرة جميلة ، لا يصف جمالها مثلي فإني لست بشاعر أو كاتب .. ولكنها كما يخبر ويشاع جميلة وفاتنة ، وفوق ذلك يشار إليها بالأدب والشجاعة والإحسان .. ولها في كل أسبوع عادة غريبة ، وهذه العادة جولة في المدينة ، وخاصة في أسواقها القديمة ، وبعض أحيائها ، وهي كاشفة عن وجهها للعيان ، ولا ترد خاطبا ليدها ؛ ولكن لا تقبل إلا مهرا عجيبا .

فقالوا : يا عراقي ما هذا الصداق العجيب ؟!

فقال العراقي : يا أحباب .. مهر هذه الفتاة هو طير أو بلبل ذهبي عند ملك من ملوك بلاد الصين ، والحصول على هذا الطائر الذهبي ليس سهلا بل دونه الموت أو الضياع ، وهي لا تطلب مهرا سواه .. ولقد سمعنا أن بعض الناس ذهبوا لإحضاره من تلك البلاد ؛ ولكن ما عدنا نسمع عنهم من خبر ونبأ .

خيم الصمت على السامعين مندهشين لهذه الحكاية وهذا المهر ، ثم تكلم حسان الذي ذهب به خياله إلى العراق والصين فقال : يا عراقي شوقتني إلى هذه الأميرة .. فهل جمالها وحسنها وأدبها كما قلت وتستحق المغامرة والعناء ؟

رد العراقي بحماس : إي والله .. إنني رأيتها بأم رأسي ، لولا عجزي وضعفي لطرت لبلاد الصين وحصلت على ذلك الطائر الذهبي وقدمته لها لأحظى بليلة قربها .

فعاد الشاب حسان بن عبد الرحمن يقول : يا قوم لقد شوقني هذا العراقي إلى تلك الحسناء مع زهدي في النساء فما تقولون ؟!

فقال أحدهم : ولكن يا حسان .. فيها موت أو ضياع .

فرد بقول الشاعر : ومن يطلب الحسناء لم يغله المهر .. وأنا أحب المغامرة فما أنتم قائلون ؟
فرد آخر : الأمر إليك .. واسأل أباك وأمك يا ابن الكرام .
فقال حسان : أيها العراقي أدعوك لزيارتي ومقابلة أبي ليسمع منك قصة الأميرة البصرية، وعندما ترجع لبغدان سأرافقك بمشيئة رب البرية .. فأنا معك إن شاء الله .. فالسياحة في الأرض عبادة .

وعاد بطل قصتنا إلى بيته ليلا مهموما مشغول البال والفكر عاشقا للمغامرة ولتلك الحسناء البصرية ، وبعد صلاة الفجر جلس مع أبيه وأمه وذكر لهم قصة العراقي عن البنت البصرية ، وعن رغبته في الذهاب إلى العراق ومشاهدة تلك الأميرة على أرض الواقع ؛ فإن كانت تستحق المغامرة فلسوف يصل الصين ويجلب لها الطير مهما كان الثمن الذي سيدفعه ، وبعدما سمع الوالدان الخبر أصابهما الوجوم ، ثم قال الأب عبد الرحمن : أراك عاشقا يا ولدي على السماع ! وبهذه السرعة الخاطفة ، ومن قبل أن تراها وتعرفها ؟! ورغم ما سمعت منك من الكلام دعنا ننظر في الأمر مليا.. وعجل لنا برؤية هذا العراقي لنسمع منه القصة ، ولماذا قصها أمامك؟ .. ونريد أن نتوثق من حكايته .. فلا تتعجل يا ولدي ! فحسناوات النيل كثيرات ويرضين بالزواج منك بدون عصفور صيني ، وبلا تعب ، وبلا سفر، واحذر مهاوي العشق والغرام ، ومن بنات الملوك والأمراء .

قال حسان بعدما سمع هذا الكلام : يا أبتي جزاك الله خيرا على نصحي .. وعندما تسمع صاحبنا العراقي يكون بيننا القول الفصل والكلام .. واسمحوا لي بالانصراف فقد حان وقت العمل وفتح الدكان .



وبعد أيام كان حسان قد جهز نفسه للرحيل مع التاجر العراقي إلى بغداد عاصمة ملك آل العباس أعمام النبي محمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد عدنان ، وقد استسلم الأب عبد الرحمن لهذه المغامرة بعدما رأى عزيمة ولده على الرحيل للبصرة ، فقدم الأب للولد المال والإرشاد اللازمين ، وحذره من العجلة واتباع خطوات الشيطان ، والذي دفع الأب للاستسلام لهذه الرحلة والسفر هو رغبته الأكيدة في أن يرى ولده حسان متزوجا كسائر اخوته ، وخشي أن يكون عقبة أمام زواجه ، فيزداد تمنعا ورفضا للنكاح ، وأيضا كان للولد رغبة قوية بالزواج من خارج القطر والمصر، فوافق بعد جدال ونقاش مع حسان والاخوة والأم ، فاتفق أن يسير حسان بصحبة العراقي الذي اجتمع بوالد حسان ـ وقص عليه حكاية الأميرة العراقية ـ لينظر الفتاة البصرية، ووجد عبد الرحمن أن المانعة والمعارضة لن تنفع ولده وقد صمم على المغامرة مهما كلفت ، والحياة تجارب ومغامرات ، فزوده بالمال والنصح وهو راض عنه كل الرضا ، وكذلك استسلم اخوته وأمه لسفره ومغامرته المجهولة النتائج رغم لوعة الفراق .



ولما تجهزت القافلة العراقية بالبضائع المصرية سار برفقتها حسان مصاحبا للعراقي ، واستغرقت الرحلة أكثر من شهر ونصف حتى وصلت بغداد مدينة السلام أم الحضارات والتاريخ العريق ، وكان حسان قد مر على مدن عجيبة وجميلة خلال الرحلة فقد رأى غزة وبيت المقدس ودمشق الشام ، وفتن عندما رأى بغداد العامرة بأهلها وبتاريخها ، وتمنى لو كانت الرحلة لهذه المدن الجميلة طويلة حتى تمتلئ عيناه من جمال وروعة تلك المدائن الإسلامية الرائعة؛ ولكن رحلته مع القافلة التجارية لم تحقق له هذه الأمنية ، ولم يمكث في المدن أكثر من اللازم والوقت المناسب لراحة البغال والجمال ؛ ولكنه اضمر في نفسه زيارة هذه المدن الجميلة

بعد انتهاء مغامرته وبقائه حيا يرزق ، استضافه صديقه البغدادي في بيته أجمل ضيافة ، وسر والده بالضيف المصري، ورحب به بحرارة ودفء ، وسمع سبب مجيئه إلى بغدان فقال : يا ولدي دعك من هذه الأميرة .. وأنا أزوجك فتاة بغدادية من بنات الأكابر أجمل وأزكى منها وبدون تعب ورهق وطير ذهبي .

فشكره حسان وشكر نصحه وأثنى على مرؤته وقال : يا والدي لا ترضى لي بأن ارجع إلى أهلي خائبا وبدون الأميرة إن راقت لعيوني وقلبي ، ولا بأس من المحاولة لعل الدهر يضحك لي .. وإن فشلت في رحلتي سأمر عليكم وأتزوج من بلادكم .. ولولا أن قدر الله لي سماع القصة من ولدك ماجد ما فكرت بالنكاح .. وكان نعم الأخ والصديق في مصر وفي العراق وفي الطريق .. وأرجو أن تسمحوا لي بالسفر إلى البصرة غدا بعون الله .

فقال والد ماجد : انتظر سبعة أيام ، فثلاثة ليال لا تكفي للتعرف على بغداد وحواريها ودروبها وقصورها ومكتباتها وعلمائها ومساجدها .

فقال حسان بأدب : يا والدي ألا يكفي هذا ؟! أنا أتيت لغاية وإني في شوق لتحقيقها .. وبارك الله فيكم.. وإني عاجز عن شكركم ورد جميلكم .

فأجابه الأب بخجل : أخجلتني يا ولدي ! .. نحن اخوة في الدين .. وكم أكرمنا أهل مصر من قبل عندما كنا ننزل بلادكم! .. وقد حدثني ماجد عن حسن معاملتكم معه في بلادكم ، بل شكركم واجب علينا .. ولست أدري هل يجب أن ينزل ماجد معك البصرة ؟

قال ماجد : كنت سأذهب بصحبته يا أبي؛ ولكنه أقسم أن لا أذهب معه.. ويحب أن يسير وحده.. ولا أستطيع إلا أن أبر بقسمه ؛ وأعطيته خطابا لبعض أصحابنا في البصرة ليساعده ويعينه في تلك المدينة .

رد الأب قائلا : أحسنت يا ولدي .. وهل أوصيت عليه صديقنا جعفر الموج ؟

رد الابن : فعلت يا والدي .

قال الوالد مرة أخرى: أحسنت ثانية يا ولدي! ويا ولدي يا حسان إذا احتجت لمساعدة فلا

تستح منا ؛ فأنا مثل والدك وحقك فرض علينا .. لو أستطيع طلب هذه الأميرة لك بدون هذه البدعة لفعلت أيها الابن العزيز .. اصحبه يا ماجد إلى طرف المدينة ، وأوصي عليه من تراه مغادرا من التجار للبصرة حتى لا يقطع الطريق وحيدا .. أم تريد أن تركب النهر .

رد حسان : سأنزل عليها بالبر يا والدي العزيز .

دعا له الأب بالسلامة والتوفيق ، ومع الصباح الباكر كان يغادر بغداد في طريقه للبصرة ، وبعد أيام وفي الليل كان يدخل البصرة تلك المدينة القريبة من خليج البحر، فنزل فندقا في وسط المدينة أرشده إليه التجار الذين رافقهم من بغداد وقضى أول ليل فيه وفيها، ولما أصبح النهار كان يوم سبت فتزيا بزي العراقيين حتى لا يبدو غريبا في المدينة مع كثرة الأغراب في شوارعها ، فهناك الهنود والعجم بألوانهم المختلفة ، ونزل السوق وعندما وصل سوق التجار سأل عن جعفر الموج فدلوه على تاجر صاحب دكاكين كثيرة كأنه شيخ السوق .. فسلم عليه ودفع إليه كتاب ماجد ابن تاجر بغداد ، ففضه وقرأه ، ثم رحب بالضيف ، وأحسن وفادته وعجب لقصته ورحلته وقال : يا ولدي هذا الأمر صعب وشاق عليك وما تجني منه إلا امرأة والنساء كثير !

فأظهر له حسان رغبته ولهفته وإعجابه بهذه المرأة ، وأنه ترك المال والعز والأهل حتى ينظر هذه الفتاة ، ويظفر بها ويتزوجها أو يهلك دون ذلك ، فعاد التاجر البصري يقول : يا ولدي فتاة البصرة فتاة حسناء جميلة ؛ ولكن مطلبها هذا غريب ! والذي يظهر لنا من هذا الشرط هو عدم رغبتها في الرجال والزواج وحتى لا يجبرها والدها واخوتها على النكاح اخترعت هذا الصداق ومنذ سمعنا بهذا الطلب لم يتقدم إليها سوى ثلاثة أشخاص حسب ما أذكر وذهبوا وما عادوا وإني مشفق عليك أيها الشاب ، فأنت ما زلت في مقتبل العمر والمستقبل أمامك .. وإنك ابن تاجر ثري لا ينقصك مال ولا جاه .

فقال حسان : اشكر لك هذا الشعور النبيل والنصح الأمين ؛ ولكن يا عماه أتيت من بلاد مصر العامرة لهذا الغرض .. فأنا أحتاج أن تساعدني في مقابلة هذه الأميرة والاجتماع بها فقط .. لا أريد غير ذلك وجزاك الله خيرا .

قال جعفر الموج : حسنا أيها الفتى ! .. طبعا تريد أولا أن ترى هذه الفتاة ، وهذا سهل .. فمن عادة فتاة البصرة أن تنزل السوق نهار الجمعة بعد العصر ، فيمكنك أن تراها ، وبعدها نفكر في الخطوة التالية .. واعتبر نفسك ضيفي ونزيل بيتي .

فاعتذر حسان عن تلبية ذلك فقال : شكرا لك يا سيدي ! ولكني استأجرت حجرة في خان البصرة .. وأحب أن أبقى فيها حتى أتحرك وأتعرف على هذه المدينة البحرية بحرية وبدون حرج .. وسأزورك كل يوم .

فقال التاجر جعفر : حسنا يا حسان ! افعل ما بدا لك أيها الشاب ولكن غداؤك اليوم معنا.. أرجوك لا ترفض .



كان الأسبوع طويلا بالنسبة لحسان فهو مشتاق وعاشق بالسماع ، فقد قطع المسافات الطوال لرؤية تلك الحسناء ، وما صدق الشاب وأن جاء يوم الجمعة وانطلق إلى سوق التجار بعد صلاة الجمعة في جامع البصرة الشهير مسجد أبي الحسن إمام أهل البصرة في زمن التابعين، فوصل إلى دكان التاجر جعفر، فاستقبله وقال : اجلس يا بني بعد العصر إن شاء سترى الأميرة التي أتيت من بلاد النيل لمشاهدتها .. والله إننا لنعجب لكم أيها العشاق ! عندما تعشقون تذللون الصعاب ولا يهمكم شيء إلا الحصول على غايتكم .. كان الله في عونك .

بعدما خرج الناس من المساجد بعد صلاة العصر انتشر عدد من رجال الشرطة في السوق كالعادة لحفظ الأمن ، فهم يتابعون جولة الأميرة في السوق ، وحفظها من الناس من الإساءة إليها ، فجلس جعفر وحسان أمام الدكان ينتظران الأميرة في سوق التجار والأقمشة في مدينة البصرة .

ناس البصرة قد اعتادوا على جولات ابنة عامل البصرة ، فلا يكترثون كثيرا لنزولها وتجوالها ، فهذا عندهم أمر طبيعي اعتادوا عليه ، ولولا انتشار الشرطة لا يشعرون بمجيء الأميرة، دخلت الأميرة الحسناء على جواد السوق ووراءها جنديان من حرس أبيها ، ولما اقتربت من دكاكين جعفر، وأصبحت أمام ناظري حسان المتوتر والمشتاق لهذه المشاهدة ، المشرئب العنق نحوها ، فلم يتمالك نفسه وهو يقول : والله إنها لجميلة حقا !! ما رأيت مثل هذا الجمال في بلدي!! إنها تحفة جميلة يا سيدي جعفر !.. بيضاء البشرة ، دائرية الوجه كأنه بدر التمام ..

وقفت الحسناء البصرية أمام الدكان ، فقام لها جعفر وفعل مثله حسان المشدوه بسعة عينيها وسوادهما ، وقد ازداد خفقان قلبه واهتزازه في داخل صدره، وسمعها تتحدث مع جعفر وهي تلحظه بطرف عينيها فقالت : يا جعفر مالي أراك تجلس بباب الدكان على غير العادة ؟!

فقال حسان في نفسه : إنها ذكية الفؤاد فقد لحظت جلوسه أمام دكانه ..وكان صوتها لطيفا لذيذا رخيما ..

ثم سمعها تقول بصوت عذب بعدما رد عليها جعفر: وهذا الغلام أراه ينظر إلي بشغف ؛ كأنه أول مرة يراني أمام هذه الدكان؟!

فقال جعفر بشجاعة وإقدام : فعلا هو يراك أول مرة يا أميرة البصرة .

فتمتمت : غريب أيها الشاب ؟!

فتمتم حسان بصوت متهدج : نعم أنا مصري .. من بلاد النيل أتيت لهذه البلاد ..

تبسمت الأميرة وقد لحظت اضطراب الشاب فسرها ذلك ورددت : مصري !! وأشارت لجارية خلفها : جاريتي هذه مصرية أيها الشاب ما بك أيها المصري تحدق النظر فيّ باستغراب ؟

زاد ارتباك حسان رغم أنه تاجر ابن تاجر ، والحديث مع النساء والجواري ليس شاقا على مثله فهو يفعل ذلك في بلاده ، فكان يمسح العرق البارد على جبينه ولم يتكلم ، فعادت الأميرة تخاطب التاجر جعفرا :ما هذا الشاب يا جعفر ؟

فقال جعفر باسما ومداعبا : شاب كأي شاب ! رأى أميرتنا لأول مرة فذهل .. أيتها الأميرة .

أدارت رأس حصانها لتتابع السير وهي تقول وعلى وجهها ابتسامة : إلى اللقاء يا جعفر ! يبدو أن لصاحبك المصري قصة .

وعندما ابتعدت الصبية هبط حسان على الأرض يزيل العرق المتصبب من جبينه وصدغيه ، وأخذت أعصابه تهدأ شيئا فشيئا ، وتناول بعض الماء ، ولما عادت إليه روحه قال جعفر مبشرا : حظك حسن أيها الفتى .. الفتاة قد أعجبت بك كما سحرت أنت بها .

فقال حسان : سيدي .. كيف عرفت ؟!

رد التاجر جعفر : إنني كما ترى رجل كبير في السن ومن خلال عملي في هذا السوق منذ خمسين سنة أعرف مثل هذه الحكايات والنظرات والابتسامات .. ألم تسمعها تقل إلى اللقاء يا جعفر يبدو أن لصاحبك المصري قصة ؟ .. فهي تريد سماع القصة .

فقال حسان : ألا تصدق أنها أول مرة أشعر بالارتباك أمام امرأة مثل هذا الارتباك والاضطراب إنها يا سيدي فتاة جميلة جدا فاتنة! وما كان ماجد مبالغا عندما عجز عن وصفها.. وهي فطنة ذكية ، وأصدقك القول أنني ازددت بها غراما وهياما وهوى .. واسأل الله تعالى أن ييسر لي الزواج منها .. سيدي جعفر كيف يمكن أن ألتقي بها وأتكلم معها ؟ .

فضحك جعفر على وله الشاب وتعجله وقال باسما: تستطيع أن تزور قصر أبيها وتخبره برغبتك بالزواج من ابنته ، ولن يعترض على طلبك وسيرحب بك؛ ولكنهم سيطلبون منك طير ملك الصين الذي أرى أن دونه التعب والنصب والغربة والموت الزؤام .. ولكنني أنصحك بأن تحاول لقاءها وتجلس معها ، وسأدبر ذلك لك لعلها تتعلق بك وتستغني عن هذا الطلب المزعج وتتزوجها كما يتزوج الناس وتعود بها إلى والديك وأهلك ..

ضحك الشاب وقال حالما : أيمكن أن يتحقق هذا الحلم سريعا .. ؟!

قال جعفر : هذا أمره عند الباري سبحانه وتعالى .

ودع الشاب التاجر جعفرا ، وعاد للخان الذي ينام فيه فوجد صاحب الخان في انتظاره وهو يقول : ها قد أتى الريس حسان.

فالتفت حسان للرجل الذي يخاطبه صاحب الخان فقام رجل يجلس معه، وكان حسان قد وصل إليهما وفي عينيه سؤال ، فرحب كل منهما بالآخر وسلما على بعضهما وقال : نعم يا أبا محمد .. ما الخطب ؟! .

فقال صاحب الخان : هذا الرجل أتانا يسأل عنك .

فقال الرجل الغريب : سيدي حسان أرغب في الحديث معك ؛ ولكن خارج الخان لأمر ضروري .

فخفق قلب الفتى والتفت إلى صاحب الخان الذي لزم الصمت وقال : أين ؟!

فقال الرجل : اتبعني .

فكرر حسان القلق الاستفهام : إلى أين ؟

الرجل المجهول : إلى بيتي .



تشجع حسان ونفض الخوف عن قلبه ، ومشيا ساعة من الزمن حتى وصلا لحي قديم ، ودخل الرجل وحسان خلفه وهو مطمئن لهذا الرجل ظانا أنه من طرف الأميرة التي قابلها في السوق دفع الرجل باب أحد الدور وصاح : لقد أتى السيد حسان يا سيدي !

سمعوا صوتا من الداخل يطلب منهم الدخول ، فدخل الرجل وخلفه حسان غرفة مظلمة ، وسمع صوتا مبحوحا يقول : اجلسا .. اشعل القنديل يا زيدان .. لنرى هذا الفتى المصري .

فقال حسان بصوت مضطرب ساوره الخوف: أين أنا ؟!

فصاح الصوت المبحوح متهكما: ألا تعلم أين أنت؟ أنت عند سيدك أبي المعالي زعيم لصوص البلدة .

ردد حسان بصوت متهدج خائف : زعيم لصوص المدينة ! ويحكم ما علاقتي باللصوص ؟!

فقال الرجل المبحوح : لا تتعجل أيها الشاب الآن ستعرف كل شيء .

أنار نور القنديل الغرفة المعتمة وبدد ظلامها المرعب ، فاستطاع حسان أن يرى صورة كبير اللصوص في المدينة ، وقد رآه اللص أيضا ثم خاطبه بصوته المبحوح :

أيها الفتى المصري .. علمت بأنك تملك مالا كثيرا وأرغب بالحصول على شيء منه

فقال حسان : ومن أخبرك بأن معي مالا كثيرا ؟!

ورفع اللص صوته قليلا وهو يقول : هذا شأني .. وما عليك إلا أن تنفذ وتطيع .

فرد حسان بتحد بعد أن عادت إليه شجاعته وطبيعته : وإذا لم ألبي هذا الرغبة .. فما أنت فاعل بي ؟!

رد كبير اللصوص قائلا : ستبقى في ضيافتي حتى تدفع .. وكل يوم تمكثه في ضيافتنا يزيد المبلغ ألف درهم .

فضحك حسان ، وقد عادت له كل شجاعته ، وقال : كم كنت تريد مني بداية قبل أن تحبسني ؟!

فقال الصوت المبحوح : خمسة آلاف درهم ..واحذر أن تشكونا للعسس والعرفاء وإلا فقدت حياتك .

فصاح حسان : الله اكبر !.. الله اكبر ! وصل الأمر إلى القتل !

كان حسان في مأزق فعلا ، فهو لم يعتد معاشرة اللصوص وأوباش الناس، وبينما حسان وزعيم اللصوص يتجادلان ، طرق الباب ودخل رجلان أحدهما أعمى بين يديه عصا ، والآخر يسحبه فألقيا التحية وجلسا ، فقال ذو الصوت المبحوح على أثر صمتهما عند دخول الرجلين : يا زيدان دعهم يأتوننا بالطعام حتى يتعشى معنا الريس حسان المصري .. يبدو أنه يرغب في ضيافتنا والمبيت عندنا ؛ كأن أجرة النزل والخان أثقلت كاهله.

فضحك حسان لسخرية الزعيم منه وقال ساخرا: قررت أن أظل في ضيافتك يا زعيم اللصوص .. قد انقلب إلى لص مثلكم.. آكل تعب الآخرين..أهؤلاء أيضا لصوص؟ .. وهذا

الكفيف لص ؟

قهقهة أبو المعالي وقال : أعجب منك أيها الغريب ! .. أنت غريب ولا تخشى على حياتك منا؟

أجابه بطل قصتنا : فلتعلم أن الموت من عند الله وليس من عندك .. ومن يضمن لي إن اشتريت حريتي منك وأعطيتك ما تبتغي من الدراهم أن لا تخطفني مرة أخرى .. للمزيد من الكسب الخبيث ؟

فتعهد اللص بالوفاء وقال : هذا عهد مني أن لا أطلب منك غيرها .

فسخر حسان من عهده وقال : وهل لكبير اللصوص عهد ؟! .. وما يدريني بأن لا يأتيني غيرك ويبتزني .

قال : ستبقى في حمايتي حتى تغادر هذه المدينة بسلام .. فأنت تجهل أبا المعالي لأنك غريب.

فقال حسان هازئا : اطمئن .. لقد قررت البقاء هنا أيها الرجل .. والسكنى عندكم .. لقد أعجبني مناخ بلادكم .. وسأعمل عند جعفر الموج .. فهو صديق لي .

قال أبو المعالي: اعرفه أيها الرجل.. ادفع ما عليك ، وانصرف راشدا حتى لا أفقد صبري وأفعل بك ما لا تحمد عقباه .. أنا أول مرة أسمح لنفسي بالحديث مع رجل غريب مثلك بهذه الطريقة الطيبة الناعمة ..

فكر حسان قليلا ولاحظ أن ذكره للتاجر جعفر لم يدع أثرا لدى هؤلاء المجرمين ، ففكر في حيلة أخرى يرهب بها قلوب هؤلاء المجرمين فقال : أتعلم لماذا جئت لبلادكم ؟ .. جئت من مصر لأتزوج أميرتكم بدور .

أخذ أبو المعالي ورجاله يضحكون بصوت عال وقال: أتريد الزواج من الأميرة المغرورة أيها المجنون؟! .. أتيت من بلاد النيل لتتزوج من الأميرة .. إنني حزين من أجلك أيها المحب.. إنك تنعي نفسك لنا .. هل تقابلتما ؟

فرد حسان همسا : سأفعل ذلك قريبا..

عندئذ دخل رجل الغرفة مسرعا وهمس في أذن أبي المعالي كلمات ثم خرج ، فاعتدل أبو المعالي

في جلسته بعدما كان مستلقيا على ظهره وقال : حسان المصري .. الأميرة ترغب بلقياك.
حدق فيه حسان وقال لنفسه ما أدراه ؟! ثم رد : لم أفهم ما قلت ؟! بل كيف علمت بذلك ؟!
تمعن كبير اللصوص بحسان لحظات وقال: أيها المصري .. ستعود للخان .. ولا تنسَ الدراهم وسيقدم عليك أحد الرجال فادفع إليه المعلوم من غير مماطلة كما اتفقنا .. وإياك أن تخبر أحدا بما جرى بيننا وإلا فالموت بانتظارك ..



وكان الوقت يقترب من الفجر ، فخرج حسان مع الرجل الذي أتى به نحو الخان، وتركه على باب الخان ، فلقي صاحب الخان في انتظاره فقال لأبي محمد صاحب الخان : ما الخطب أيها الرجل ؟!

فقال الآخر : لقد جاءت جارية من قصر الوالي عامل البصرة برفقة غلام من غلمان جعفر الموج يسألون عنك .. فأخبرتهم بأنك خرجت مع رجل غريب ، ولم تقل لي إلى أين سرتما ؟.. وسيعودون في الصباح للحديث معك .

صعد حسان لغرفته في الخان وهو مشغول الذهن في جارية القصر والأميرة وبأبي المعالي الطامع بما معه من مال .. وكيف وصل إليه الخبر بأن الأميرة تريدني ؟ أله جاسوس في الفندق؟ فصاحب الخان لم يقل أن الأميرة تريده .. إنما قال جارية من جواري الوالي أتت تسأل عني.. قد أكون مطلوبا للوالي وليس لابنته .. وكيف عرفوا بمقدار ثروتي ؟ .. أمر يثير الحيرة .. عجيب أمر هؤلاء اللصوص أين الشرطة والأمن والوالي؟! .. هل أدفع له خمسة آلاف درهم ؟ .. هذا عار وجبن واستسلام .. آخ .. إن الأمر لصعب ..

نام حسان من شدة التعب والإرهاق من أحداث المساء والليل، فرغم الأفكار التي تشغله فما طرح نفسه على الفراش حتى ذهب في سبات عميق .

ومع الضحى كان غلام جعفر الموج في الخان يسأل عن حسان بن عبد الرحمن ، فأيقظوه من نومه فهبط إليه مسرعا وهو متوتر النفس يسأل الغلام : ما الأمر يا عبد الله ؟!

فقال غلام جعفر مخبرا : جارية الأميرة تريد الكلام معك.. وها هي في انتظارك في بيت سيدي جعفر .

فانطلق حسان مع الغلام إلى منزل التاجر جعفر الموج ، فوجده في انتظاره وبعد التحية والسلام قال حسان : ماذا جرى يا سيدي جعفر ؟!

فقال جعفر : أين كنت ليلة أمس أيها الفتى ؟

فقال : كنت عند أبي المعالي كبير لصوص البصرة .

همس جعفر وقال : اسكت أيها الفتى سأستمع إليك بعد قليل .. ادع الجارية يا عبد الله لتحدث السيد حسان .

جاءت الجارية وقالت لحسان بعد السلام : ابنة الوالي ترغب بالكلام معك أيها الشاب لأمر يهمك .

فقال بفرح طاغ : على الرحب والسعة .. وأنا خادم الأميرة المخلص .. أين وكيف ومتى ؟

فقالت الجارية : ستراك هنا في هذا المنزل بعد ظهر هذا النهار .. فعليك أن تبقى هنا ..فلا تخرج حتى أعود هل سمعت أيها السيد ؟

فالتفت للسيد جعفر وقال : القول لسيدي جعفر .

ابتسم الشيخ جعفر وقال : اذهبي أيتها الأمة واحضري سيدتك لمقابلة هذا الشاب الذي أرى أن الحظ يبتسم له .

انصرفت الجارية وسمع حسان التاجر يقول بعد خروجها : يبدو أن الأميرة وقعت في هواك فهي تنشد لقاءك بدلا من ذهابك إليها ..

فقال حسان: إن هذا أمر غريب فعلا !.. سامحني يا سيدي فقد عطلناك عن متاجرك وغلمانك وأزعجنا أهل بيتك ..

فقال جعفر بحياء : لا .. لا .. يا ولدي .. الغلمان يقومون بالعمل على خير ما يرام .. وهذا شرف كبير أن أوفق على جمعك بالأميرة التي ترغب أن تتخذها عروسا .. وقبل أن تحضر معشوقتك وتتلعثم بالكلام اخبرني ما حكاية أبي المعالي معك .

فقص عليه حسان حكاية أبي المعالي من أولها إلى آخرها ، بعدما استمع جعفر للقصة سكت طويلا قبل أن يقول : هذا لص معروف بالبصرة ، وهو مطلوب للعسس والشرط .. ولكن كيف علم بمكانك وما تحمل من مال ؟! .. فهل يعلم صاحب الخان أن معك مالا كثيرا ؟.. وهل يعلم أنك قادم للزواج من الأميرة ؟!

فقال حسان : لا يعلم إلا أنني مصري قادم للعمل في هذا البلد .

سكت جعفر برهة ثم قال : من يعلم أن معك مالا كثيرا غيري ؟

عاد حسان يقول : لا أتذكر أحدا .. هل أدفع له المال يا سيدي ؟

فقال له جعفر : انتظر حتى تقابل الأميرة وتسمع منها .. فلنستعد لصلاة الظهر في مسجدنا ، ثم نتناول الغداء الطيب وننتظر الفتاة .

أخذ حسان يبدي لمضيفه الاعتذار والأسف على إزعاجه وشغله في قضيته عن أعماله وتجارته فرد عليه الشيخ جعفر : لا حرج عليك .. لقد أوصانا عليك ابننا ماجد .. والناس بعضهم لبعض ..

رجعوا للبيت بعد الصلاة ، وأتت الأميرة بدور مع جاريتها لمنزل التاجر جعفر وهي متخفية بلباس شعبي ، فرحب بها التاجر وأهل بيته أحسن ترحيب ، ثم رحبت هي بالشاب المصري وبعدما جلسوا قالت لهم : لابد أنكم حائرون من هذه الزيارة .. ما بالك أيها الشاب قد تغير لونك ؟ .. تمالك نفسك .. ولا تخف ..



ضحك جعفر ضحكة خفيفة وقال : فعلا أيتها الأميرة .. فأمرك غريب ويحتاج إلى توضيح .. ومرحبا بك في بيتنا المتواضع ..!

لم يتكلم العاشق الولهان ، فأزاحت اللثام عن ووجها وقالت : أيها المصري .. ما الذي أتى بك من مصر ؟ .. لقد كانت عيناك تتكلم أثناء وقوفنا أمام دكان جعفر .. كانت نظاراتك اليّ نظرة فتى ولهان .. ولقد قرأت حكايات كثيرة عن المحبين وعن عيونهم وأشعارهم وغزلهم وها هو وجهك يزداد امتقاعا ويتلون بالاضطراب والوجل ..

فأجاب عنه جعفر: هو ما تقولين أيتها الأميرة ..ولك فراسة ما كنا نعرفها عنك .. هذا المصري سمع بحسنك وجمالك فترك النعيم والمال والفتيات طامعا بالزواج منك والقرب منك .

فقالت وهي ترمق الشاب بعينيها : أحقا ما قال جعفر ؟!

همس حسان : نعم أيتها الأميرة .

فشجعته الأميرة قائلة : حسنا أيها الفتى .. عرفني بنفسك .

تكلم حسان عن نفسه ، وعن قصته وسبب مجيئه إلى هذه البلدة ، وقد استعاد هدوئه ورباطة جأشه أثناء الحديث عن نفسه ، ولما اكمل الكلام وسكت قالت الأميرة مصرحة : إنني أميل إليك أيها الشاب الطيب ..

عجب جعفر لجرأتها وسرعة اعترافها ؛ ولكنه سمعها تقول : ولكني جعلت لمن يرغب بزواجي أن يجلب لي طيرا ذهبيا عند ملك كبير في بلاد الصين .. فقد قرأت عن هذا الطير وهويته فجعلته صداقا لي .. فهل تستطيع تحقيق ذلك ؟

فاندفع حسان بحماس المحب يقول: من أجلك يا مولاتي الأميرة أفعل كل ما تشتهين وتحبين وتأمرين ..

فقالت : سأنتظرك سنتين سنة ذهابا وسنة إيابا ، وبعد ذلك أنا في حل من الانتظار .. ولولا أن هذا اشتهر عني ، وأنه كما تقول وصل لبلادكم لقبلت بك بدون الطير السحري الذهبي..وما عليك الآن إلا أن تطلبني من أبي .. ساعده يا جعفر للوصول لقصر الوالي عامل أمير المؤمنين

على البصرة .. واعلم أيها الفتى المصري أن لك في القلب معزة ، ولن أنسى لقاءك هذا.. وسأدعو الله أن يوفقك في مسعاك العظيم .. واعلم أنني انتظرك بشوق .. ولن أقبل أحدا بعدك حتى تنقضي المدة .. وجعفر والجارية يشهدان على ذلك .. والى اللقاء أيها الشاب .

خرجت كما أتت ، فقال الشيخ لحسان : ما تقول يا حسان ؟ .. هل ستسافر إلى ملك الصين وتأتيها بالطير الذهبي ؟

فقال : يا عماه .. هويت هذه الحسناء وأنا بين أهلي وقومي .. وازدادت نار الهوى لما أبصرتها وجالستها هذه اللحظات فاشتعل القلب واضطرم بنار العشق والهيام ..

فقال جعفر : الفتاة لها هوى بك ؛ ولكن الغرور يمنعها من الاستسلام والتراجع عن هذا المطلب؛ لأنه قد أصبح حديث الركبان والشعراء.. فالتخلي عنه ليس هين عليها .. وهذا الصداق خطير يا ولدي فأنا لك ناصح مرة أخرى دعك من هذه الرحلة ، وعد لأهلك .. وبنات الكرام كثيرات .

فلبث حسان مليا قبل الكلام ثم قال بعد نظر : لابد من المغامرة يا سيدي .. متى نقابل حضرة الأمير العامل على البصرة ؟

فقال جعفر : الليلة ..!

التقى حسان بأمير البصرة فرحب به ، ثم حدثه العامل عن مهر ابنته ونصحه بعدم المسير ، ولما رآه مصرا أخبر ابنته بشأن الخاطب الجديد ، فجاءت وتكلمت مع القوم وأكدت على مدة العامين وقبل مغادرتها قال لهم حسان : قبل طلوع الفجر سأكون خارج البصرة ـ إن شاء الله ـ ونحن على موعدنا بعد عامين بمشيئة الله .

وشكروا الأمير ، وشكر حسان التاجر جعفرا ، وأثناء خروجهما من قصر الأمير أخبره حسان أنه سيكون عنده مع الفجر ليودعه ويأخذ الأمانة من عنده ، وكان حسان قد وضع أمواله عند جعفر الموج ، فعرض عليه جعفر المبيت عنده خشية اللصوص ، فاعتذر الشاب وانصرف للخان فوجد لص البارحة في انتظاره قائلا له : سيدي أبي المعالي راغب في رؤيتك .

فتذكر حسان حكاية اللص أبي المعالي ووعده معه ، فقال للص همسا : غدا الأحد أليس كذلك في مثل هذا الوقت تعال أنت ولص آخر لاستلام المال .. سوف أحضره من بيت التاجر جعفر الموج .. اذهب وسلم على سيدك أيها العبد الحقير .

من باب الحذر والحيطة لم يخبر حسان صاحب الخان بنيته بالسفر في الغد، مع صلاة الفجر وحسب الاتفاق كان حسان مع السحر أمام بيت جعفر الموج يطرق الباب ، وكان الرجل بدوره يخرج لصلاة الفجر في المسجد ، وبعدما صليا عادا لبيته فأكلا تمرا ولبنا ، وأخذ حسان ماله من عند الرجل الكريم ، وأخبره بعودة رسول اللصوص وإنظاره لهذه الليلة وقال : وبالطبع عندما يأتون أكون قد خرجت من البلدة وركبت البحر .. وأنا لم أخبر صاحب الخان بسفري حتى لا يصل أمر السفر لهؤلاء اللصوص ، لربما يكون لهم عيون في الفندق ، وسأترك له عندك من المال أجر ما قضيت من أيام عنده ، وإذا زاد شيء منها فتصدق به .. وأشكرك يا سيدي على معروفك الكبير معي خلال هذه الأيام ..

فقال جعفر بأسف : وفقك الله .. ونرجو توفيقك ، ونراك ظافرا بهذا الطير النحس .. وبعد يومين سأذهب بنفسي وأدفع لصاحب الخان .. وقد يكون جاسوس أبي المعالي عندي هنا .. فغلماني هم الذين يعرفون أنك وضعت عندي مال كثير، فلابد أن أحدهم واشي سأتحرى الحال رافقتك السلامة يا صاحبي .

انصرف حسان بعدما عانق الشيخ إلى جهة البحر حيث الميناء الكبير ، ولما أضحت الشمس وقبل أن يغادر جعفر بيته حيث السوق أقبلت جارية من جواري الأميرة تسأل عن الشاب الخاطب وتخبرهم برغبة الأميرة بلقاء آخر معه ، فضحك الشيخ جعفر وقال ضاحكا : قولي لسيدتك أن الفتى المصري ذهب في مهمته .. ولتنتظر أربعة وعشرين شهرا فلربما يتم اللقاء مرة ثانية .

أول سفينة



أول سفينة وجدها متحركة إلى بلاد الشرق ركب عليها ولم تكن هذه السفينة كبيرة ، كانت سفينة متوسطة الحجم فاستأجر مكانا على متنها ، وقبطانها أو ربانها لم يكن مسلما كان هنديا ، وكان حسان يتمنى لو يصل الصين بليلة بل ساعات ، وافق الربان الهندي على حمله معه مقابل مائتي درهم إلى أقرب ميناء من بلاد الهند والسند ، وافق حسان على الفور واشترى طعاما وماء للرحلة التي قد تستغرق أشهرا ، كانت السفينة تحمل تجارا وعددا قليلا من المسافرين كحسان ، وبعد مسيرة أيام وليال مع أمواج البحر العاتية تعرضت السفينة لعاصفة بحرية عنيفة ألقت بالسفينة على جزيرة في وسط البحر ، فحمد القوم ربهم الله على بقائهم أحياء مع صراع استمر ساعات مع العاصفة الأولى .

عندما ظهر النهار على الجزيرة لم يشاهدوا شيئا في هذه الجزيرة سوى الأعشاب وبعض الأشجار المتناثرة فيها ، فبدأ البحارة والنوتية يتفقدون السفينة والأشرعة ويصلحونها استعدادا للعودة للبحر ، فتركهم حسان مشغولين بإصلاح السفينة ، وأخذ يتمشى في هذه الجزيرة ، وينظر في خلق الله ويفكر بحسنائه التي سببت له هذه الرحلة القاسية، واستمر في المشي ساعة من الزمن ثم ألقى بنفسه على صخرة ملساء في وسط الجزيرة ، وأخذ يحلم ويحلم بعروسه الجميلة ، وفجأة تذكر أهله بمصر فقد اشتاق إليهم شوقا كبيرا، وبينما هو غارق في أحزانه وأحلامه سمع صوت صراخ مزعج ومخيف من الجهة التي تربض فيها السفينة ،

فتحرك نحو الصراخ فزاد صوت الصراخ والعويل .. فقد لمح أناسا كثيرين ، فجلس يراقب القوم وقد سرى الرعب إلى قلبه وأوصاله إنهم يحطمون السفينة .. لابد أنهم قراصنة البحر الذين سمع عنهم من ركاب السفينة .. ولمح جماعته مكبلين بالحبال ثم شاهد الغرباء يحملونهم إلى سفينتهم .. فأخفى واورى نفسه بين الأعشاب قبل أن ينتبهوا له ويروه .. استمر الصراخ

والعويل فترة من الزمن حتى ابتعدت السفينة بالأسرى .. لقد أخذوهم ليبيعوهم رقيقا ، فبكى حسان بكاء مرا ، ولكنه حمد الله تعالى أن أنجاه من هؤلاء المجرمين .. ثم مشى بعد حين حيث السفينة بعدما خلا المكان من مجرمي البحر ، وبينما هو يقترب منها ظهر رجل خاف حسان منه لأول وهلة ولكنه سمع الآخر يقول مطمئنا : لا تخف أنا صديقك عدنان ..

فقال حسان : البصري؟! .. تعال أيها الرفيق .. ما الذي حدث لنا ولقومنا ؟ .. وكيف نجوت أنت ؟

فرد عدنان البصري : كما نجوت أنت .. الحمد لله كنت نائما بعيدا عنهم ، فلما استيقظت سمعت الصراخ والعويل ثم رأيت ما حصل .. سيبيعونهم رقيقا في بلادهم .. وأنت كيف نجوت ؟!

فقال حسان بحزن وقد بدأ يدرك مدى خطورة الخطوة والمغامرة التي أقدم عليها : الحمد لله على السلامة .. كنت بعيدا عن أهل السفينة أفكر بأهلي وإخواني ومستلق على الصخرة ؛ وفجأة نهضت على الصراخ فاقتربت ثم تذكرت ما كنت تحدثني به عن أخطار البحر وعصابات البحر فتوقفت وأخفيت نفسي عن الأنظار والآن ما العمل أيها الأخ والصديق في هذه الجزيرة المجهولة ؟

فقال عدنان البصري بعد تريث: علينا أن ندبر أنفسنا بطعام وشراب .. وننتظر رحمة الله ؛ لعل سفينة تمر قريبا منا فيحملوننا معهم أو نموت هنا .

فقال حسان بحزن وأسف عميق : الأمر كله بيد الله !.. فإن كان لنا حياة ييسر مولانا الأعظم لنا النجاة ، وإن كانت الأخرى فلا مفر منها اليوم أو غدا .

فقال عدنان : صدقت .. والآن دعنا نسمع قصتك التي وعدتني ونحن في السفينة بقصها عليّ

دخل الظلام فأشعلا نارا يتسامران حولها ، وكانوا قد وجدوا بعض الطعام الذي لم يحمله معهم القراصنة ، فجلسا حول النار يأكلان ويتحدثان فقال حسان : كما تعلم أنا من أبناء مصر .. أبي تاجر ثري ومعروف في مصر كلها ، فأنا ابن نعمة يا أخي! ولست مسافرا للتجارة ولا أيضا للنزهة .. إنما سمعت عن فتاة بصرية حسناء جميلة اسمها بدور ابنة أمير وعامل البصرة ، وبها

أنك من أهل البصرة لابد أنك سمعت بها وبمهرها الذي قرأت عنه في بطون الأوراق .

فابتسم عدنان عندما عرف أن صاحبه أخرجه العشق من بلاده وقال : نعم .. ومن لا يعرف ابنة الوالي والحاكم بالبصرة ؟!.. إذن أنت تنوي وتقصد السفر إلى بلاد الصين لتحضر الطير الذهبي مهرا لأميرتنا الغريبة الشهوات .

فقال حسان بحزن شديد : هو ما تقول .. وكثير من الإخوان نصحوني بالعدول عن هذا الهوى والوهم ؛ ولكني أغلقت أذناي وفتحت قلبي فأتيت العراق وبغداد ثم البصرة وقابلت الأميرة وتحدثت معي فوجدتها كما نقل اليّ في مصر جميلة ذكية سلبت مني القلب والعقل معا فهمت بها هياما ، فصممت أن أجلب لها المهر الذي تشتهيه، فهذه قصتي وبلوتي أيها الأخ البصري، وأمهلتني سنتين ، وبعدئذ فهي حرة متحررة من الوعد، وأخشى أن تمضي السنتان وأنا في هذه الجزيرة .. فهل عندك كلام ينفع القلب المشغوف بالهوى والبلى يا ابن الكرام ؟

أجابه البصري: لا تيأس وإلا فشلت ..ولا تقنط من رحمة الله فالغايات الصعبة تحتاج لصبر ونفس قوي وطويل .. وسيأتي الفرج من حيث لا تحتسب ، فالرحلة لبلاد الصين طويلة قد لا تكفيها سنة.. فلنصبر أسبوعا من الأيام ، وإذا لم تقذف الأمواج إلينا سفينة نصنع من خشب وألواح هذه السفينة قاربا صغيرا ونلقي بأنفسنا بالماء ويفعل الله ما يشاء .

فقال حسان : ولم نصبر أسبوعا ؟! لنصنع القارب من صباح الغد .. ثم نتوكل على الله .

فقال عدنان : لا بأس .. نبدأ بصنع القارب من الغد ؛ فإذا تيسرت لنا سفينة كان بها وإن لم يتيسر نركب القارب ونسير على بركة الله حتى نصطدم بسفينة في عرض البحر .. فلننام الآن حتى الصباح ، ثم نباشر العمل فأنا لي معرفة في صنع القوارب ، لقد عملت بصناعتها عند بعض النجارين في البصرة .



فلما أصبح الصباح وظهرت الشمس أخذا يفككان ألواح السفينة ليجمعوا منها قاربا صغيرا وبعد أيام تم صنع القارب المناسب للمغامرة ، فجراه إلى الماء وجرباه بضع ساعات، ولما تيقنا من صلاحه للمغامرة ، وضعوا فيه الأطعمة والمتاع وبدأت المغامرة مع البحر الكبير ، وشرعت الأمواج تحمل القارب علوا وتهبط به وهما يجدفان في عجاج البحر، فإما النجاة وإما الغرق ويصبحان طعاما للسمك والحيتان ، دخل الليل وهما في وسط البحر، وما زالت الريح هادئة وتساعدهم في السير على متن الأمواج ، ومع شروق الشمس على مياه البحر لمحا شيئا ضخما يسير في البحر فصاح البصري : إنها سفينة ولكنها بعيدة .. فعلينا أن نزيد من نشاطنا لعلنا ندركها قبل هبوط الليل لعلهم يحملوننا معهم .

فزادا من الجهد والتجديف وساعدتهم الريح ، ومع المساء أدركا السفينة فشاهدهم عمال السفينة ، فألقوا إليهم الحبال والشبك وساعدوهما على الصعود على سطح السفينة ، ولما أصبحا على ظهرها ألقيا بنفسيهما على أرض السفينة ، وقد أعياهما التعب والتجديف ، وكانت أيديهما مضرجة بالدماء ، وقد فقدا الوعي من التعب والإرهاق والنعاس ، فساعدهم العمال بالمعالجة وزودهما بالطعام الدافئ وسمحا لهما بالنوم ..ومع الفجر استردا عافيتهما، فحمدا الله على نجاتهما فسألهم ريس السفينة عن حالهم ، فقصا عليه قصة السفينة التي استولى عليها لصوص البحر والجزر ، فأسفوا لما حصل للقبطان الهندي وركاب السفينة ، ثم بارك الربان لهم الحياة الجديدة فقال : هنيئا لكما الحياة الجديدة .. فأين أنتم سائرون ؟

فقالا : الهند سواحل بلاد الهند .

فقال الربان : وهذا من حسن حظكم فنحن إليها ماضون بإذن الله ، وكما ترون فسفينتا ضخمة فقد نحتاج وقتا طويلا للوصول هناك .. نحتاج إلى شهور قبل أن نصل مواني تلك المدن ، فإذا أحببتم نقلناكم إلى سفينة أصغر من سفن نقل الركاب

فصاح حسان : يكون هذا معروف آخر منك ؛ فإني في عجلة من أمري أيها الربان الكريم ..

فقال الربان : ابشروا فأول سفينة صغيرة تمر بنا سأنقلكم إليها خذوا قسطا من الراحة واصبروا

فإن الصبر مفتاح الفرج .

وتركهم الريس وذهب يتفقد البحارة ، وبعد أسبوع وهما على متن هذه السفينة الضخمة تمكن الربان من نقلهم لسفينة صغيرة مع بحار هندي ، فانتقلوا إليها بعدما ودعوا البحار الكريم ، وشكروه على إحسانه عليهم خلال المدة التي أمضياها على سفينته ، رحب البحار الهندي بهما ووجداه مسلما من ملتهم ، فطابت لهم صحبته وتفائلا به ، وحدثوه بقصة النكبة التي أصابتهم بعدما فارقوا البصرة ، واندمج الشابان مع سكان السفينة ، وتعرضت هذه السفينة إلى عاصفة هوجاء فاشتد دعاؤهم واستغفارهم إلى الله أن يحفظهم ويكلئهم من أخطار البحر، وبعد حين وصلت السفينة إلى سواحل الهند ، فحمدوا الله وشكروه على فضله ودفعوا إليه مالا يدفعه لصاحب ومالك السفينة فأبى وودعهما ، وقبل أن يغادرا المرفأ إلى دلهي شاهد عدنان رجلا ممن كان معهم في السفينة القديمة ، فعرفا بعضهم بعضا وتصافحوا وهنئوا بعضهم بعضا بنجاتهم وسأله البصري قائلا : ما جرى لكم مع عصابة البحر ؟!

فقال الرجل : وأنتما كيف نجوتما ؟!

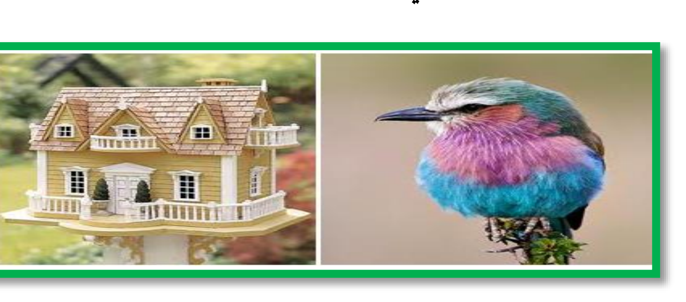
فقصا عليه قصتهما فلما انتهيا قال : ذاك من حسن حظكما .. الملاعين أخذونا إلى سفينتهم، واخبرونا بأنهم سوف يبيعوننا للملوكهم ، وأثناء الطريق رجوناهم أن يفكوا قيودنا ويبعوننا لمن شاءوا ؛ فكأنهم أشفقوا علينا ، ومضينا في البحر وتعرضت سفينتهم لعاصفة قاتلة تفتت في عرض البحر ، ومن حسن حظنا أننا كنا قريبين من ساحل إحدى الجزر ، فمنا من غرق ومنا من وصل الجزيرة سالما ، وكنت قد ركبت لوحا وقدرت لي النجاة ، ثم انتشلني ناس طيبون ، ووصلت اليوم إلى هذا الساحل بفضل الله وحمايته .

فقالا : حمدا لله على نجاتك يا أخانا ..

ونزلوا على مدينة يستريحون، وبعدما امضوا ليلة فيها تحركوا إلى العاصمة الكبيرة لهذه المدينة ، ومكثوا فيها أياما، ثم ساروا مع إحدى القوافل الكبيرة إلى مدينة دلهي ، وبعد زمن من السير حطوا رحالهم فيها في تلك المدينة الواسعة ، وبعد أيام أمضاها حسان فيها التحق بقافلة تجارية

مسافرة إلى بلاد الصين ، فاشترى بغلة وسافر برفقة القوم ، وقد ودع صاحبيه فدعوا له بالتوفيق والسلامة ، وبعد شهور من السير المتواصل أصبح حسان في بلاد الصين الواسعة جدا ، وعلم أن ملك الصين صاحب الطير الذهبي يسكن في مدينة عملاقة اسمها " شنغهاي " على ساحل بحر الصين ، وإليها تابع حسان المسير ، وهناك بدأ يتعسعس ويتحسس عن الطير ، ويسأل عن أخباره وحكايته .

الطائر الصيني



المكان المفضل لحسان حتى يتعرف على البلاد ويستطيع أن يفهم هؤلاء الناس ذوي العيون الصغيرة والوجوه الدائرية هو سوق التجار ، فترك الفندق الذي سكنه وذهب يتفرج على السوق ، وهناك أخذ يسأل عن التجار العرب فأرشدوه على تاجر عربي معروف في السوق اسمه التاجر حمزة .. فدخل دكان حمزة بعد جهد جهيد ، فسلم عليه وكان من حسن حظه أنه وجده في الدكان ، فاحتضنه حمزة وتشممه كأنه يشم فيه رائحة بلاد العرب ، وتعرفا على بعضهما ، ثم سأله حسان عن أسباب عيشه في هذه البلاد فأجابه حمزة بلطف : الأرزاق يا ولدي ! وكثرة الحروب في بلادنا ، وفي رحلة من الرحلات قررت البقاء هنا ، وتزوجت امرأة مسلمة من هذه البلاد ، واستقررت في هذه البلاد ، وهنا يوجد مسلمون كثيرون .. بل أكثر من ثلث السوق هذا لأبناء المسلمين ، ولي في هذه البلاد الكبيرة أكثر من ثلاثين سنة ، وأشار إلى صبي قائلا : هذا ولدي محمد .. ويوجد عرب غيري في المدينة يعملون في التجارة والحرف.. أنت من مصر كما قلت لي .. أما أنا فأجدادي من الشام .. كانوا يجاهدون في حملات الجهاد إلى بلاد العجم ، واستقر الكثير منهم فيها وبالذات مرو .. وما زال لي من الأقارب وأبناء العم هناك .. وأهلا بك يا ولدي حسان .

تحدث حسان مع محمد قليلا ثم عاد يقول لحمزة : حقيقة أنني فرحت لرؤيتك والجلوس معك وأدرك أنك ترغب بسماع حكايتي وسبب حضوري إلى هذا البلد .. وسأذكرها لك ـ إن شاء الله ـ متى تشاء ؟

قال حمزة : اعتبر نفسك ضيفي أيها الشاب المصري، وبعد الظهر سنذهب سوية إلى البيت ومع طعام الغداء نسمع حكايتك .. قم يا محمد وأخبر أمك بأن تجهز لنا طعاما وشرابا لضيفنا المصري .

قام محمد مسرعا إلى بيت أمه .. وبعد الظهر أخذه الشيخ حمزة معه للبيت وترك ولده محمدا في الدكان ، وأوصاه على المحل والمال ، ومع ضيافة أبي محمد قص عليه حسان قصته وسبب مجيئه لهذه البلاد ، وبعد أن استمع أبو محمد العربي للحكاية أصابه هم وحزن على الشاب وعلى شبابه فقال والحزن على وجهه : يا ولدي العزيز !.. أمرك عجيب جئت إلى آخر الدنيا من أجل حسناء ! أنتم الشباب لكم غرائب وخصوصا العشاق منكم ؛ ولكن لأنك ضيفي ونزيلي سأبذل جهدي لمساعدتك رغم الخطر المحدق بنا ، وأحسنت صنعا أنك قدمت عليّ ، ولا تحدث أحدا من الخلق بقصتك .. عليك أن تعمل بالتجارة والبيع والشراء على أنك تاجر يبحث عن رزقه في هذه البلاد حتى أدبر لك أمرا تصل به إلى هذا الطائر العجيب .

أثنى حسان على مضيفه الثناء اللائق ثم قال : يا سيدي ما حكاية هذا الطائر .. الذي أصبح يطلب صداقا لبنات الناس ؟!

قال حمزة : يا ولدي العاشق .. هذه أول مرة أسمع مثل هذه الحكاية ومثل هذا الطلب ، وسأقص



عليك قصة هذا الطير الذهبي كما سمعتها من زوجتي بنت هذه الديار .. تبدأ القصة يا حسان من زمان من زمن أحد أجداد ملك هذه البلاد .. كان كما قالوا .. له بنت وحيدة ، ورغب كثير

من الأمراء بالاقتران بها .. فتحرج ذلك الملك من ذلك ، فخشي إن زوجها لفلان أن يغضب الآخرون وقبائلهم ، فخرج على قومه بأمر هذا الطائر .. فأصدر بيانا على الشعب كله يطلب فيه صناعة مثل هذا الطير للأميرة حيث يكون أعجوبة من أعاجيب الدهر ، فمن صنع ذلك فهو الأحق بأن يكون صهرا للملك وقرينا لابنته الوحيدة ؛ وبذلك قل طلب الأمراء ليد ابنته التي كان يحبها حبا جما وما عاد يتعرض للحرج ، واستمر هذا الأمر مدة من الزمن ثم تقدم شاب من عامة الناس ليس من طبقة الأمراء إلى الملك بالطير الذهبي العجيب، تفاجأ الملك والأمراء بالأمر ؛ ولكنه أمام فتنة الطير لبى ما اقترحه على نفسه ، وتزوج هذا الشاب الأميرة أمام الكبار والصغار وكافة الشعب ، وفعلا يا حسان كان هذا الطير أعجوبة وغريبا ومدهشا للملك والوزراء والشعب ، وصفة هذا الطير يا صاحبي أنه عصفور بحجم فرخ الحمام مصنوع من الذهب والفضة بطريقة مجهولة لا يعلمها إلا صانعها الشاب بعد رب العباد .. وهذا الطير الصغير يخرج كل اثنتي عشرة ساعة أصواتا لمدة قصيرة من الزمن ؛ فإنه يضحك ثم يبكي ، ومن ثم يصفر بصوت حزين موجوع يحزن كل من يسمعه .. فعلا إنه طير مدهش لقد سمعته بنفسي .. واشترط صانع هذا الطير على الملك أن لا يحاول فكه أو العبث فيه ؛ فإن فعل فإن الطير يتعطل ويخرب ، وضع الطير في قفص ذهبي وهو في غرفة خاصة بالملك ، وحتى يرى الشعب هذه الأعجوبة وهذا الطير العجيب المضحك والمبكي والحزين جعل الملك للشعب ثلاثة أيام في السنة لمشاهدة هذا الطائر ، فيخرج هذا العصفور إلى ساحة عامة بحراسة آلاف الجنود ، يستمع إليه الناس والزوار ثم يعاد إلى غرفته في قصر الملك .. ومن الجدير بالذكر يا حسان المصري أن هذا العصفور كان يقال عنه قديما إنه يحدث أصواتا أخرى غير البكاء والضحك والحزن ..فكان يخرج منه أصوات ونغمات لبعض الطيور ، فقد حاول أحد الملوك الفضوليين الذين ورثوا العرش أن يتفحص الطائر ويعرف سره ، فقام بفك بعض الأجزاء منه ثم ندم فأعاد القطع المفكوكة لمكانها فما عاد يسمع إلا الأصوات الثلاثة فحسب ، فندم هذا الملك أشد الندم ، وكان صانع الطير ميتا ، فظل فيه ثلاثة أصوات يتوارثه السادة الملوك ، وظلت عادة

إخراجه للناس من ذلك التاريخ إلى اليوم ثلاثة أيام في السنة ، وتوقفت بعض السنين بسبب الحروب والفتن التي كانت تعصف في البلاد ، وبعد شهور قليلة يأتي ميعاد إخراجه فيمكنك مشاهدته وسماع نغماته الثلاثة .



فقال حسان بحسرة : إني أرغب بالحصول عليه وليس مشاهدته فقط .

فقال حمزة : الأمر صعب ؛ ولكنه ليس مستحيلا كما وعدتك سأحاول مساعدتك

هذه قصة الطير الذهبي العجيب ؛ ولكن هل يستطيع حسان الحصول عليه مهرا لفتاة أحلامه كما وعدها ؟ .. هذا ما سنعرفه في باقي أحداث هذه القصة .. استقر حسان في السوق ، وتعمقت علاقته بحمزة وتجار السوق ، واكترى له حمزة حانوتا يبيع فيه البخور والعطور والبهار ، واندمج حسان قريب أبي محمد في العمل والمجتمع الذي يحيا به حتى راودته نفسه بإنشاء سلالة في هذه البلاد والاستقرار بين هؤلاء الناس الطيبين؛ ولكن حنينه للأهل والوطن وتعلقه بفتاة البصرة الأميرة بدور فتاة أحلامه الجميلة منعاه من الاسترسال في هذه الأماني ، ودفعاه بالاستمرار في طريقه للحصول على الطائر الصيني .. وكان يراوده خاطرا آخر مثبطا هل يفقد حياته من أجل عيني أنثى هويها على السماع ؟.. هل تراها تستحق هذه التضحية ؟ .. لكن هذا شرط ليس تضحية .. لا يوجد إكراه .. ويمكنه الانسحاب في أي وقت.. هل يصل للملك الصيني، ويطلبه منه، ويقص عليه قصته لعله يتعطف عليه بطائر الأجداد؟ قد يشفق عليه ويهديه الطائر .. إنه ملك عادل كريم .. أم هل يسرقه؟ ولكن كيف يصل إليه ويستخلصه من بين العساكر؟ هل أستطيع استبداله بطير آخر؟ وكيف سأخرج به من البلد سالما ؟.. هل يصل به للبصرة سالما ؟

كان أكثر وقته يمضيه مع العم حمزة يفكران بحيلة يصلان بها إلى الطائر ، فلم يجدا طريقة أو وسيلة سوى سرقته يوم الاحتفال ، وهذا الحل فيه تهديد قاتل للاثنين معا .. فكيف يسرقانه من

بين آلاف الجنود والحرس ويخفيانه ؟! .. اقترب موعد الاحتفال بالعصفور وإخراجه للجماهير لينظره أهل المدينة والغرباء مدة ثلاثة أيام ازدادت معرفة الناس بحسان ، وكانوا يلقبونه الطبيب العطار ، والسبب في ذلك أنه كان يصف للمتوجعين والمرضى من أهل تلك البلاد الدواء والوصفات العلاجية من الأعشاب التي يبيعها ؛ وذلك عرفه من خبرته في مصر والتي كان يتعلمها ويسمعها من العطارين في بلاده ، وقدر الله أن تعافى على يديه عدد لا بأس به من أهل السوق ، فأصبح يطلقون عليه بسبب ذلك الطبيب العطار ، وقدر الله أن شفي على وصفاته شخص يعمل في قصر الملك طاهيا ، وفرح هذا الرجل الصيني فرحا ما عليه من مزيد عندما شفي من مرضه العسير حتى أصبح الرجل حديث الناس .

وجاء الموعد موعد ظهور العصفور العجيب في الساحة المعهودة ، وبدأ الناس يتحركون لسماع صوت العصفور ، وكان حسان في شوق لسماعه ، فساقه أبو محمد لمشاهدته ، فسارا للمكان المحتشد بالجند والعساكر ذوي الملابس الرائعة والسيوف الملونة، فكل هؤلاء العسكر جمعوا لحماية العصفور وتنظيم مرور الناس، وعندما اقترب موعد نطق الطير كان الزحام حوله شديدا ، وقد خيم الصمت على الجميع ، وكان حسان وصاحبه حمزة قد اقتربا من القفص كثيرا فشاهداه عن قرب .. ضحك العصفور فأعجب السامعون بضحكه ، ثم بدأ يبكي فبكى الناس لبكائه ، ثم أخذ في الصفير المحزن فحزن الناس لحزنه ، ذهل حسان لما يرى ويسمع ، فلما انتهى الصفير أخذ الناس يبتعدون ليحل محلهم أناس آخرون ينتظرون لحظات الاستماع ..وقفلا عائدين، وحسان وأبو حمزة مشغولان في طريقة الوصول للطير في مثل هذا الزحام والجند .. فكان حسان يرى أن ذلك من المستحيل وصعبا .. فاعترف للعم حمزة بصعوبة سرقته وإخفائه من بين كل هؤلاء الخلق ، وقد اعترف العم حمزة أيضا بصعوبة هذه الطريق ، وعجزه التام عن مساعدته فقال : أرأيت كم من العسكر حوله يا ولدي ؟! .. وحتى لو استطعنا إبداله هل يمكننا إخفائه وتهريبه للعراق؟ .

وعاد حسان إلى بيته مهموما مغموما، وفي نفس الوقت متعجبا من هذا الطير ومن صانعه ،

ويجد الأعذار للأميرة بعشقها لهذا الطائر عن بعد فكيف لو تراه ؟ .. فلم يخرج حسان في اليومين التاليين للعمل ، ولما جاءه محمد بن حمزة يسأل أخبره بتعبه وضيقه من الدنيا، وتفاجأ حسان بأبي حمزة يدخل عليه في صباح اليوم الرابع من ظهور العصفور للعوام وهو مصفر الوجه ، وقد دخل مسرعا مضطربا وهو ينادي : حسان .. حسان . فخرج إليه مسرعا ملهوفا خائفا يقول : مالك يا سيدي ؟!.. ما الذي أصابك ؟!



فقال بخوف شديد : سرق الطير الذهبي يا حسان !

جلس حسان على الأرض من هول الخبر على نفسه وكيانه ، وقال بصوت متقطع : ماذا قلت ؟! سرق الطير الذهبي .. سرق الحلم ؟!

قال حمزة بصوت كأنه البكاء : نعم ، إنها كارثة إنها مصيبة !! العسكر ملئوا المدينة ، وقد غضب الملك غضبا شديدا وأغلقت أبواب المدينة لا دخول ولا خروج حتى يظهر العصفور !

فقال حسان بخوف : إنها لمصيبة كبرى حقا ! .. من يا ترى فعلها ؟!

فردد حمزة حائرا : من يا ترى فعلها ؟! أيكون أناس مثلك جاءوا لإحضاره لتلك الأميرة التي ذكرت لي حكايتها ؟

فقال حسان : لا أعتقد ذلك .. فهي أمهلتني سنتين .. أما قصة الثلاثة الذين سبقوني فهؤلاء خرجوا ولم يعودوا .. وحكاياتهم قبل أن أخرج من مصر .

توترت المدينة الكبيرة لاختفاء العصفور ، وتعرض حراس الطير للمسألة ، وبعضهم للتعذيب لتقصيرهم في المحافظة على الطير ، والملك غضب غضبا عصيبا حتى أشرف منه على الموت فرقد في الفراش ، فقد تألم تألما كبيرا على ضياع العصفور الذي له أكثر من مائتين سنة يتوارثه الملوك، وانشغل أهل القصر بضياع العصفور وبمرض السلطان .. والناس كانوا يتكلمون باستغراب ودهشة عن الصفة والحيلة التي تمت بها سرقة الطير رغم وجود الحرس الشديد ليلا ونهارا .. في اليوم الأخير لاستعراض الطائر العجيب أمام الناس ، فعندما جاء موعد الضحك

والبكاء والحزن سكت الطائر لا صوت ولا خبر.. اضطرب الناس والجند .. فتم نقل العصفور للقصر فورا .. ولما أتى الموعد التالي بعد اثنتي عشرة ساعة أيضا لم يتكلم .. فحص الحكماء القفص ، فكان نفس قفص الطائر الذهبي ، فنظروا الطير وأخرجوه من قفصه الذهبي .. الشكل والصورة نفس الطائر العجيب .. ولكنه شبيه به ، أخبر الملك باستبدال العصفور ، فغضب لهذه الإهانة وبدأ التحري والبحث وأصدر أمرا عاجلا بإعدام كل الحرس المسؤول عن الطائر في الساحة الكبرى .. فتشفع فيهم الكبار وطرحوا في السجن حتى تنكشف الحيلة التي أخذ فيها الطائر .. وما زالت عملية استبدال العصفور غير واضحة ولابد أنها حيلة شيطانية، ومضى أكثر من أسبوع ولم يعثر على الطير والسارق ، فازداد شحوب ومرض الملك ، وعجز أطباء القصر عن علاجه ، لقد كان هذا محبا للطير فقلبه معلق به ، فهو ميراث الأجداد والأسياد وهو قد فشل في المحافظة على هذه الطير وهذا الميراث .. ففقد الملك الشهية لتناول الطعام والشراب ، فوضع الوزير مكافأة كبيرة لمن يرشد على سارق العصفور ، وصار الأطباء يترددون على الملك لمعالجته عما ألم به من ألم شديد .. وخشي القوم عليه الموت ، وما زال وريثه الشرعي طفلا صغيرا .. وفي ليلة من الليالي والوزراء والأمراء يجلسون في غرفة الملك المريض يحدثونه بأخبار المملكة سمعوا صوت العصفور من غرفته يتكلم ويضحك ويبكي ويصفر الصفير المحزن ، فهرعوا إليه فوجدوا العصفور المستبدل يتكلم .. جاء الحكماء وقرروا أن العصفور الحقيقي أعيد ثانية ، وأن المقلد سرق واختفى .. فتسأل الجميع من سرقه وكيف أعيد ؟! فرح الملك بعودة الطير الذهبي ثم قال بكل صراحة : السارق في هذا القصر ، ولابد لي أن أعرفه ، ولابد أنه من الأمراء والوزراء .

علم الناس بعودة الطير المسروق ، فعاد الفرح والسرور لهم لعلمهم بعودة الطير للنطق ، فعم المدينة الهدوء ، وعاد الجنود لمعسكراتهم ؛ ولكن الملك لم يتعافى من المرض ، فما زال مريضا ، واجتمع مع الحكماء والخبراء وسألهم : هل أنتم متأكدون بأن العصفور استبدل ثم أعيد ثانية أم أن الأمر التبس عليكم ؟

اجمعوا جميعهم على أن العصفور استبدل ثم أعيد ثانية .. فطلب الملك رئيس الحرس وابلغه بأن عليه خلال أسبوع واحد فقط بإحضار سارق العصفور أمامه ، وأن السارق ربما قد يكون في هذا القصر .

فقال رئيس الحرس : أمر سيدي الملك .

ومضى الأسبوع فطلب الملك المعتل رئيس الحرس مرة أخرى واستفسر عن السارق فقال: يا سيدي ويا مولاي !.. عندما تسترد العافية والصحة نخبرك بالسارق .

صاح الملك : أتعرفه ولم تقل لي بعد ؟ ويلك سآمر بإعدامك .

فقال الرئيس : مولاي مرضك لا يسمح لنا بأخبارك .

زاد اضطراب الملك وقال : لابد أن تقول حتى لو كان ابني !!

قال بتردد : مولاي .. لا أدري ما أقول ! ولكنني سأخبرك رغما عني .

فصاح الملك بغضب وتوتر شديدين : قل أيها الجندي ؟

همس الرجل بصوت ناعم : الملكة يا مولاي الملكة !

فهمس الملك : زوجتي .. زوجتي ؟!!

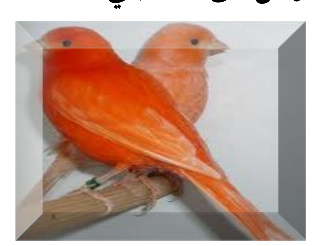
قال الحارس : نعم يا مولاي ! مولاتنا الملكة هي التي سرقت العصفور ثم أعادته ثانية .

فلما استوعب الملك الخبر صدم وأغمي عليه فعالجوه ، ولما استيقظ همس قائلا : ولماذا الخيانة لماذا فعلت ذلك ؟! وما ذنب الرجال الذين امرنا بإعدامهم لولا تدخل الوزراء ؟! .. إنها مجرمة مجرمة ..

وطلبها الملك وهو مشرف على الموت وسألها عن سبب ذلك ، فأخبرته واعترفت بأنها هي التي استبدلت العصفور بآخر مثله لا يتكلم لرغبة عشيقها بالحصول على هذا العصفور ـ وكان الظن أن لا يستطيع الحكماء التمييز بين العصفورين ، ويعتقدون أنه تعطل وتوقف ، ومن المعروف أنه لا يمكن تصليحه لاعتقادهم ذلك الأمر منذ صناعته الأولى ، وأنه إذا فك شيئا منه لا يعود كما كان ، وعندما حاول أحد أجداد الملك فكه تعطلت منه تسع نغمات ، ويحزن عليه

الملك حينا ثم يصبح أمره نسيا منسيا ـ والملك كان يعلم أن زوجته تعشق أحد وزرائه ؛ لأنه أيضا يعشق زوجة ذلك الوزير ، وهذا أمر مستساغ في البلاط الصيني .. فلما سمع الملك اعترافها أمر بحبسها حتى يشفى من مرضه وينظر في أمرها ، وأمر أيضا بالقبض على الوزير العاشق المتواطىء ، فهدأت عاصفة سرقة الطير قليلا ؛ ولكن الملك ما زال مريضا ويهزل يوما بعد يوم ، ومضى شهر ولم يستطع الأطباء شفاءه ، فتشجع الطاهي الذي عالجه حسان وأخبره بأن هناك شابا عربيا اسمه حسان وصل البلاد منذ عهد قريب ، وهو يعمل في العطارة والأعشاب وماهر في وصف الأدوية فقال الملك مشجعا له : أحضره لي .

ذهب الطاهي في قصر الملك لسوق العطارين وإلى حسان بالذات وأطلعه على رغبة الملك برؤيته ليحاول علاجه ، فتعجب حسان للقدر ، وحدث الشيخ حمزة بذلك فضحك وعلق قائلا : أراك أصبحت طبيبا للملوك؟ توكل على الله يا بني !



انطلق حسان برفقة الطاهي إلى قصر الملك ، فأحسنوا الترحيب به ، وأدخلوه على الملك العليل الذي تحدث معه بلطف حتى هدأ روع الفتى حسان وقال له: سمعت أنك تحسن المداواة أيها الشاب.. فإذا استطعت أن ترد لي عافيتي فاطلب مني ما تشاء ولو كان ملكي .

فدعا حسان في نفسه متوسلا إلى الله " يا رب ساعدني على ذلك " ثم رد على الملك : سأحاول يا مولاي الملك! وأرجو من ربي أن يشفيك كما شفا سيدنا الطاهي من مرضه العسير .

وتقدم حسان ووضع يدع على صدر الملك وظهره وجبينه ، وكان حسان يعلم أن سبب مرض الملك حزنه على العصفور المفقود ، ولما انتهى من جس الملك قال : يا مولاي الملك ! .. قد يستغرق العلاج وقتا ليس قصيرا وبإذن الله ستشفى .

فقال الملك باستسلام : افعل ما تراه مناسبا المهم أن نشفى ولك ما يرضيك .

قام حسان المصري برقية الملك كما كانوا يرقون أنفسهم ببلادهم فقرأ عليه ما يحفظ من آيات القران ، ثم قال : سأصنع لكم دواء يا مولاي .. هل تأذن لي بالانصراف ؟

فقال الملك : انصرف لتصنع لنا الدواء فنحن بانتظار دوائك .

صنع حسان بعض التركيبات من الأعشاب التي تنفع المحزون ، وبعض التركيبات التي تساعد على فتح الشهية للطعام .. وما مضى شهر حتى تحسنت صحة الملك ، وفرح الجميع بعافية الملك وسر حسان بتوفيق الله له ، وفرح الشعب لشفاء ملكهم ، وبعد نهاية الشهر الثاني عادت للملك صحته السابقة وقوته وحيويته ، وأحضر حسان بين يدي الملك ليكافئه فقال له : اطلب منا ما شئت ؟

فقال حسان بصوت متهدج من الفرح : اطلب يا مولاي سلامتك فقط .

فقال الملك : بوركت أيها الشاب ولكن اطلب لدنياك أيضا ؟

فقال حسان بتردد : قد يندم مولاي لطلبي .

فقال الملك بحماس : لو طلبت أن تصبح ملكا جعلتك ملكا.. لقد ردت لي الحياة على يديك

فقال حسان : لا أريد أن أصير ملكا يا مولاي! ولكني أريد الطير الذهبي لقد رأيته في الميدان وأعجبني .

تغير لون الملك ثم قال : لقد طلبت طلبا عجيبا ما خطر على بالي .. وماذا ستفعل به ؟ .. أنا اشتريه منك بما تشاء من الذهب .

فقال حسان : أنت قلت لي اطلب ما شئت وسأذكر لك قصتي ..

واستمع الملك لقصة حسان من بدايتها لآخرها ، وعجب لها كل العجب وتعجب للأقدار والأحداث التي أوصلته إليه، فلما انتهى من ذلك قال الملك : سوف أهديك الطائر لتذهب به إلى محبوبتك ، واستغني عنه رغم حبي الشديد له .. ولكنه كان سبب مرضي ، وكاد يوردني الموت ، وستكتب قصتك عندنا في صحفنا

فنهض حسان يقبل يدي الملك ويشكره ، ووضعوا له الطير في صندوق زجاجي متقن الإغلاق

حتى لا يسمع أحد صوت العصفور عند موعد الكلام ، ولا يلفت إليه الأنظار، وأمر الملك بتجهيز مركب له ، وأعطاه من المال أحسنه، ومكث حسان مدة من الزمن ، ثم ودع فيها المعارف والأصحاب والإخوان والملك ، وركب المركب التي انطلقت من بحر الصين نحو العراق ، فكان حسان سعيدا بحصوله على الطائر الذهبي ، فيشكر الله ويحمده ليلا ونهارا الذي سخر له ذلك وسهل الأمر له، وأن هذا من عجيب الاتفاق وتدبير رب الآفاق ، وبدعوات أمه وأبيه الصالحات، وبكثرة الصدقات في كل الأوقات والمناسبات ، كان حسان خائفا على العصفور من الضياع والغرق ، وكان بحارة المركب الصيني يظنون أنه يحمل رسالة لملك العراق وهدية خاصة في ذلك الصندوق الملفوف بأجمل القماش وأجوده .. الرحلة لم تكن بالقصيرة ولا بالسهلة إنها رحلة في بحر وفي ذلك الزمان .. الريح العواصف لصوص البحر ، نزل القوم بعد مسيرة أسبوعين من الزمن في جزيرة ليستريحوا ويشترون الطعام .. أخرج حسان الصندوق الزجاجي الصغير ودفنه في الأرض وجعل عنده علامة ، لقد خاف عليه من السرقة ونوائب الأيام ، ودخلوا الجزيرة وهم يلبسون لباس البحارة ، فلما رآهم سكان الجزيرة ساقوهم لملكهم ، وكان سكان هذه الجزيرة من ذوي الألوان السوداء وذوي القامات القصيرة ، ولما تمثلوا بين يدي الملك قال لهم : من أي البلاد أنتم ؟ ومن أين أنتم قادمون ؟!

ردوا أنهم من بلاد الصين وأنهم رسل ملك الصين إلى ملك العراق ، فسخر الملك الأسمر القصير منهم وقال : أيها السادة قررنا بقاءكم عندنا ، ألا تعلمون أنه من يدخل جزيرتنا عليه أن يبقى لدينا سنة قبل أن نسمح له بالسفر ، ولقد أعجبتني المركب التي تركبونها فهي هدية لي ثم نادى الملك الأسمر أحد الرجال وأمره أن يسير بهم للحقول ليشاركوا الفلاحين في جني الثمار ، وحذرهم من الهرب وبين لهم عقاب من يفعل ذلك فهو معرض للموت ، وقادهم الجند إلى فلاح وأخبروه برغبة الملك بشأنهم ، وعندئذ تساقطت الدموع من عيني حسان، وعاد يندب حظه السيئ ، فتعرض للضرب بالسياط والشتم ورضخ للعمل في جني الثمار من أعلى الأشجار واستسلم للأمر الواقع ، ولاحظ أن سكان الجزيرة قليلون ؛ ولكنهم قساة القلوب لا يرحمون

الغريب ، وأثناء عمله في الحقول لاحظ عددا لا بأس به من الغرباء بينهم ، فصمم في نفسه أن ينظمهم ويحاولون السيطرة بهم على الجزيرة ، وبدأ يتصل بهم ويعرض عليه فكرته العنيفة بحذر شديد وتأن، وما انقضى نصف سنة حتى هيأ مائة رجل قد وافقوا على أفكاره بالتمرد على أهل الجزيرة .

وكان حسان أيضا خلال هذه الفترة يتقرب لملك الجزيرة فانجذب إليه الأخير واستساغ حديثه وقد اتفق حسان والرجال أن يتخلصوا من الملك يوم الاحتفال الكبير ، وفي ذلك اليوم المشؤوم على أهل هذه الجزيرة تجمع الناس في مكان واسع ، فأخذت النساء بالرقص والغناء ، والرجال بالشراب المسكر ، وكثر الزعيق والصياح والهرج ، وكانت الإشارة أن يقتل حسان الملك ، ومن ثم يهجم الرجال المتآمرون بالسيوف والخناجر ، ويقتلون كل من يقع بين أيديهم من رجال الجزيرة القصار القامات ، ومع عصر ذلك النهار تقدم حسان متظاهرا بالسكر وفقدان العقل نحو الملك ، وهو يحمل بين يديه فتاة صغيرة قام بوضعها أمام الملك الأسمر الذي نهض بدوره ليعانق الفتاة أمام الناس ليبدأ تعانق الرجال والنساء ، فلما انحنى الرجل عليها ليقبلها طعنه حسان بخنجره الطويل المسموم ، وهجم على رجاله السكارى وهو يصيح هائجا مائجا ، ودخل اتباع حسان المكان ، وكانت ملحمة مرعبة دب فيها الصراخ والعويل والنواح والتراكض ، وما حل الظلام حتى كانت الساحة ممتلئة بالقتلى والجرحى والدماء ، واجتمع الرجال الأغراب حول حسان وشكروه على شجاعته وجرأته فقال بغضب : علينا أن نطهر الجزيرة منهم .. ثم نجهز المراكب والسفن ونخرج من الجزيرة قبل أن ينتشر المرض والوباء .

قام الأسرى بقتل كل من وجدوه من سكان الجزيرة الذكور ، ومن اختفى نجا ، واحتل الرجال القصر قصر الملك الأسمر ، واخرجوا ما فيه من أموال ووزعوها على أنفسهم ، وجهزوا المراكب ، وركب حسان والصينيون مركبهم مركب ملك الصين ، وأخذ صندوقه المخفي ، وودع القوم وركبوا البحر ، والنساء تقذف عليهم الحجارة والسهام ، ومضت المراكب في لجاج البحر ، وكان حسان يهمس لنفسه قائلا : هذه أول مرة اضطر فيها للقتل والغوص في الدماء!

لا حول ولا قوة إلا بالله .. اللهم أوصلني لبلدي سالما .

ولكن الحاجة للتزود بالطعام والماء الصالح للشرب كانت تدفعهم إلى النزول على سواحل المدن والبحر والجزر ، فنزلوا بالقرب من مدينة على ساحل البحر، ودفن حسان صندوقه في مكان خارج السفينة ، ووضع له علامة مميزة ، ودخلوا المدينة وكانوا أيضا بلباس بلاد الصين وقابلتهم عجوز فسألوها عن مكان ينامون فيه ويشترون الطعام منه فقالت لهم العجوز محذرة : أهل المدينة خارجها يحتفلون عند الآلهة فالأفضل لكم أيها السادة أن تنجوا بأنفسكم قبل أن يعودوا فتهلكوا .

ولكن قد جاءت النصيحة متأخرة ، فقد كان الكثير من الناس قد انصرفوا من عند صنمهم فأدركوهم وقبضوا عليهم ، وطرحوهم في السجن حتى يعود الملك من عند الصنم وينتهي الاحتفال ، اعلم الملك بأسر غرباء وأنهم أودعوا جب السجن ، فأمر بإحضارهم سريعا للمثول بين يديه ، فلما تمثلوا بين يديه قال لهم : من أين انتم يا رجال ؟

فرد قائد المركب : نحن رسل ملك الصين العظيم لملك العراق ، ونحن نزلنا سواحل المدينة لشراء الطعام والماء ثم متابعة السفر .

فقال الملك بقسوة وجفاء: أنتم ضيوفنا .. وغدا سأنظر في أمركم خذوهم إلى الجب وقدموا لهم الطعام والشراب ، واحذروا من هربهم أيها الجنود ، وليكونوا بين يدي غدا صباحا .

ولما أحضروهم بين يدي الملك الذي أخبرهم بأنهم أصبحوا عبيدا عنده وأشار لحسان: هذا العبد فليعمل في القصر.. والآخرون في البساتين وزرائب الحيوان..وإياكم ومحاولة الهرب.. فنحن نسترق الغريب .. من وطىء بلادنا أصبح لنا رقيق ، ومن تمرد ورفض فنطعمه للوحوش التي في حوزتنا .

ادخلوا حسان على الطاهي حتى يتعلم منه طهو طعام السادة ، ووجد حسان الطاهي رجلا غريبا مثله ؛ ولكن له زمن طويل لدى الملك ، فنسي نفسه وأهله وأقاربه ورضي أن يعيش في قصر الملك طباخا ، وأخذ يقنع ويرغب حسان بهذه الحياة ؛ والذي دفع الملك أن يرسل حسان

للقصر هو حاجة القصر إلى طاهي جديد يساعد الطاهي القديم ؛ لأن مساعده قد مات من عهد قريب ، فلما سمع الطاهي بوجود أسرى جدد ذكر الملك بحاجته لطاهي ، فاختار له الشاب حسان ، فأتقن حسان عمله الجديد ، وأصبح طاهيا ممتازا ، وصار يقدم الطعام للملك بنفسه وارتاح له الملك ولمسامرته ، واتفق حسان والرجال الصينيون على تدبير حيلة للهرب ، وذلك عندما يكون عند القوم احتفال بمعبودهم ، وعلى كل منهم أن يتظاهر بالمرض أو حيلة قبل الاحتفال بأيام ليهربوا ، وقبل الاحتفال بأيام ظهر على حسان الوجع والألم وملازمة الفراش ، فجزع الملك على خادمه وطاهيه الجديد ، وأرسل له طبيبه الخاص ، ونجح حسان بإظهار المرض على نفسه ، وعندما تحرك الناس للاحتفال تحرك حسان ورجال المركب إلى البحر ، وكان الرجال قد جهزوا المركب على حين غفلة من الناس ، وزودوه بالطعام والماء ، وأخرج حسان الصندوق الزجاجي وركبوا البحر ، فلما عاد القوم من أعيادهم والاحتفال فلم يجدوا حسان ولا أصحابه فأصاب الملك الندم والأسف فقال بسخط ونقمة : غدر بي اللعين ! وسخر من ذكائي !

وأمر أعوانه بمطاردتهم ، ولكن هيهات هيهات أن يدركوهم .



الملك حسان

ومضت مركب القوم تجوب عباب البحر يمينا ويسارا ، وصمدت أمام الرياح والعواصف حتى ألقت بها موجة كبيرة في رمال جزيرة خضراء ، ولكنهم خافوا أن تكون الجزيرة مسكونة بالأشرار ويحدث لهم ما حدث معهم سابقا ، فمع بزوغ الفجر دفعوا المركب حيث الماء، وما كادوا يبتعدون حتى لمحوا أناسا يركضون نحوهم ويصرخون عليهم ، فلم يهتموا بهم ومضوا يقطعون المياه قطعا ، وقد ساعدتهم الريح بالابتعاد عن الجزيرة ، ولكنها ألقت بهم مرة أخرى بجزيرة بوسط البحر ، وقد تحطمت المركب عندما اصطدمت بصخرة صلبة ضخمة ؛ ولكنهم سقطوا على الأعشاب الخضراء ، ولما أشرقت الشمس وجد حسان أحد الرجال ميتا ، وآخر مغمى عليه ، فقاموا بعلاجه ثم دفنوا الميت في الأرض ، ودفن صندوقه في مكان معلوم لديه ، وكان حسان يحمل الصندوق أثناء سير المركب على وسطه خوفا من ضياعه لطارئ ما وبينما هم منشغلون بلملمة جراحهم أحاط بهم رجال يحملون رماحا قصيرة ، وساقوهم لسيدهم ملك هذه الجزيرة وسيدها ، وكانوا محطمين متعبين من أثر الرضوض التي أصابتهم ولما وصلوا بهم للملك سر بهم وأعلن الاحتفال بمقدمهم ، وسمع لحكايتهم وحديثهم وأمر أعوانه بمعالجتهم وخدمتهم حتى يستردوا صحتهم وقوتهم ، وبعد حين من الزمان تم شفاؤهم شفاء تاما ، فاجتمع بهم الملك وطلب منهم قص حكايتهم مرة أخرى ، فلما سمعها ثانية فقال الملك لحسان العربي : أيها الشاب سأجعلك نائبا لي تحكم هؤلاء القوم .. سأقوم برحلة تستغرق وقتا طويلا .. فعليك أن تحسن الحكم

وتعدل بينهم حتى أعود .. وإياك والهرب ، وسآخذ بعض أصدقائك معي .

اعلم ملك الجزيرة شعب الجزيرة بأنه جعل حسان نائبا له ريثما يعود وعليهم بطاعته ؛ لأنه سيزور ابن عم له في جزيرة أخرى ، فأصبح حسان السيد المطلق في الجزيرة حتى يؤوب الملك من زيارة ابن عمه ، سافر الملك وحمل في مركبه عددا من أصحاب حسان الصينيين ، عند الفجر وحسان يصلي الفجر سمع صراخا أمام القصر ، فلما أنهى الصلاة نظر من غرفته إلى الصراخ ،

ثم أمر حارس الباب بإدخال الناس عليه ، ودخل معهم رئيس الحرس فقال له حسان : ما هذا الصراخ أيها الرجل ؟! ..

فقال رئيس الحرس : مولاي الملك ! .. امرأة تقول أن زوجها قتل .. وتريد محادثتك .. فذكرنا لها أن الملك نائم ومع شروق الشمس نأذن لك بالدخول .. فأخذت بالبكاء والصراخ..

فتبسم حسان لقول الحارس له " مولاي الملك " فخاطب نفسه متهكما منها " هل يعقل أن أكون ملكا ؟ ولماذا لا أجرب الملك يوما ؟!

ثم أجاب رئيس الحرس قائلا : أيها الرجل .. في كل وقت ليلا ونهارا ادخل من يريد مقابلتي ولا تؤخرهم البتة .. دعها تدخل .

وقفت المرأة الباكية بين يدي الملك الجديد أو نائب الملك فصاحت:مولاي الملك قتل زوجي !

فقال لها بهدوء : اهدئي واذكري قصتك وشكايتك بالتفصيل .. ومن قتل زوجك ؟

مسحت دموعها وقالت : أبناء عمه .. جاءوا الليلة الماضية إليه وقتلوه .

فقال حسان : ولماذا قتلوه ؟!

فقالت : قتلوه لأنه رفض أن يقرضهم من ماله فتشاجروا فذبحوه حتى الموت ..

فقال حسان مخاطبا رئيس حرسه : حسنا أيتها المرأة ، يا رئيس الحرس أحضر لي أبناء عم زوج هذه المرأة .

فقال رئيس الحرس : أنا ابن عم زوج هذه المرأة .

فقال حسان بدهشة : آنت ابن عم زوجها؟ .. أسمعت ما قالت ؟!

رد الحرسي فقال : نعم .. يا مولاي سمعتها وهي صادقة فيما قالت ، تشاجر زوجها معنا فقمنا بذبحه لأنه لم يقرضنا مالا .

فقال حسان : أكنت معهم ؟ قال : نعم .

فقال حسان : وتركت حراسة القصر وذهبت لتشارك في قتل زوجها ؟

فقال الحرسي : مولاي .. ذهبت لأساعدهم في الحصول على القرض ، ثم تشاجروا ولو لم

يقتلوه لقتلهم .

فنهض حسان وتمشى في الغرفة قليلا ثم قال : أريد أن أرى جثة القتيل .. هيا بنا أيتها المرأة إلى بيتك.

وانطلقوا إلى بيت المرأة فلم يجدوا جثة القتيل ، فسأل الجيران عنها فقالوا : ألقيناها في البحر كالعادة .

فدار حسان حول كوخ المرأة وتفحص الأرض ثم قال لرئيس الحرس ومن معه من الحرس : ما حكم القاتل عندكم ؟

فقال أحدهم : القاتل يقتل .

فقال حسان : يا رئيس الحرس احضر لي أبناء عمك الذين شاركوا في قتل زوج هذه المرأة ، وائتوني إلى القصر لأنظر في الأمر عجل بذلك ولا تتأخر .

وبعد ساعة من الزمن كان أهل البلد يتجمعون أمام القصر ، وحضر الرئيس وأقاربه أمام الملك الجديد، وسألهم عن سبب قتلهم لابن عمهم ، فذكروا ما ذكر رئيس الحرس فقال حسان : أعندكم قضاة ؟

فقالوا : لا .. الملك هو السيد المطلق يقضي ويحكم ويزوج وكل الأمور بيديه .

فقال حسان : أيها السادة .. أعندكم سجن ؟

قالوا : نعم . فقال : اسجنوا المرأة في السجن حتى يعود الملك الكبير ويقضي في قضيتكم .. وكذلك اسجنوا رئيس الحرس وأبناء عمه حتى يعود سيدكم فقد قضيت بينكم .

فقام الحرس باعتقال رئيس الحرس وأبناء عمه ووضعوهم في السجن، ووضعت المرأة في سجن خاص ، واشتغل حسان بقضايا الناس وحل مشاكلهم ومشاجراتهم والمشاركة في تزويجهم ، وفكره مشغول بالهرب والنجاة من هذه الجزيرة ، فلا يجد فرصة فالعيون عليه ، ولا سفينة نزلت بهذه الجزيرة منذ أن تحطمت سفينتهم على شواطئها ، واستمر في الحكم على مضض ، وقد طالت غيبة الملك ، فآتاه أهل البلد وطلبوا منه العفو عن السجناء كما أفرج عن المرأة .

فقال لهم : أنا لم اعف عن المرأة .. إنها أخرجتها من السجن حتى يعود الملك ويرى فيها رأيه .. وعلى كل حال سأطلق سراحهم حتى يأتي ملككم .

وسمع صراخ على باب القصر فسأل عنه ، فقيل له أن سفينة جنحت على الجزيرة ، فأصدر أمره لهم بعدم التعرض لها بسوء، وخرج بنفسه لمشاهدة السفينة، وكان الناس قد أحاطوا بركاب السفينة وهم يحملون رماحهم وعصيهم ، وأولئك خائفون منهم ، ثم سمعهم يصيحون ويصرخون : جاء الملك .. جاء الملك !!

فقال في نفسه " ويحي هل أصلح أن أكون ملكا ؟"

افسحوا له الطريق فنزل عن الجواد ، ثم قال مخاطبا الناس : ابتعدوا عودوا لعملكم وليبق الحرس فقط .

ثم قال : من ربان السفينة ؟ .. لا تخافوا أيها البشر نحن بشر مثلكم !

فتقدم رجل غليظ وقصير البدن وقال : أنا صاحب هذه السفينة يا سيدي الملك .

فقال حسان : من أي البلاد أنت قادم ؟!

فقال : من بصرة العراق .

خفق فؤاد حسان وصاح : من البصرة ؟!

فقال الرجل : أتعرفها أيها الملك ؟!

فقال حسان وهو يتراءى البصرة والأميرة البصرية : نعم أعرفها أيها السيد ..أأنت بصري ؟

فقال الرجل : أنا من أهلها ؟

فقال حسان : وهؤلاء ؟

فرد الربان قائلا : هؤلاء مسافرون إلى الهند ..ثلاثون رجلا وامرأتان .. دفعت بنا عاصفة ورياح قوية للجنوح إلى هذه الجزيرة .

فقال حسان : أيها القوم أنا نائب ملك هذه الجزيرة .. وإنني أرحب بكم في قصر الملك أم تحبون الرحيل ؟ ولكني راغب بالحديث معك أيها البصري .. فمر بحارتك بإصلاح الأشرعة

والاعطاب حتى أسمع منك أخبار البصرة ؟

وأمر الملك الحرس بالعودة إلى القصر، ثم أخذ البحارة بإصلاح الأشرعة والصواري ، وسار حسان بالبصري حتى ابتعدا عن الجميع ثم قال: حدثني عن البصرة وكيف هي ؟

فرد البحار : بخير .. هل تريد أن تعرف أخبار شخص ما ؟!

فقال حسان : أتعرف جعفر الموج ؟

فصاح الرجل بفرح وتهليل : ومن لا يعرف التاجر جعفرا ؟

فقال حسان: هو صديقي .. وهل تعرف أميرة البصرة بدور ابنة والي وأمير البصرة ؟

فكان البحار في دهشة فقال : لكأنك بصري أيها الشاب ..ومن لا يعرف تلك الأميرة يا سيدي ؟

فقال حسان : ما أخبارها ؟ هل تزوجت أم ما زالت تطلب الطير الذهبي مهرا لها ؟

فصاح الرجل من جديد : إنك تعرف البصرة وقصصها أكثر مني أيها الملك .. هذا ما تشترطه تلك الأميرة على من يريد الاقتران بها ؛ ولكنها اليوم قد تركت البصرة وذهبت من سنتين أو أكثر ..

ارتفع خفقان فؤاد العاشق وقال : ذهبت إلى أين ؟!

فقال الربان : ألك بها معرفة يا سيدي ؟

فقال حسان بشوق : أعرفها جيدا وجلست معها وسمعت حديثها .

ثم قال: والآن لا تقلق . قل لي ما أخبارها ؟.. لتسافروا قبل عودة الملك وتتعرضوا للأذى؟

فقال البحار البصري : هذه المرأة قد مات والدها الوالي منذ سنوات فعين ملك بغداد عاملا جديدا مكانه فغادرت وهاجرت إلى بغداد .. وقد سمعنا أن أحوالها قد تغيرت منذ قدم شاب مصري من مصر وطلبها من أبيها ، وكعادتهم أرسلوه ليأتي لهم بالطير الذهبي من بلاد الصين وسافر ولم يعد بعد .. وقالوا إن الأميرة بعد سفره ندمت وإنها وقعت في هواه ، فبحثت عنه لتتزوجه من غير قيد أو شرط ولكن المصري أسرع بالسفر .. وبعدما مات والدها نزلت وأهلها

بغداد وانقطعت أخبارها عن البصرة ؛ ولكننا سمعنا أن أحد أبناء الوزراء أو الأمراء تزوجها والآن قل لي ما علاقتك بهذه الحسناء ؟

بلع حسان ريقه ثم قال للربان : جزاك الله خيرا .. أنا الشاب المصري الذي رحل للصين لجلب العصفور الذهبي ..وقد تيسر لي جلب هذا الطير ولكن المركب تحطمت ورمتنا على هذه الجزيرة وقص عليه بعض قصته ثم قال : ولكن قدر الله كان مقدورا .. فإن عدت للبصرة فسلم لي على سيدي الشيخ جعفر وأخبره أن حسان المصري يهديه أفضل السلام .. وأسرع بالرحيل عن الجزيرة قبل عودة الملك ..ولو كنتم ذاهبين للبصرة لرافقتكم وهربت معكم ..



عاد حسان للقصر بعدما ركب الركاب وانطلقوا في البحر ، ودخل حسان القصر حزينا لا أحد يستطيع الحديث معه ، فدخل غرفته وأخذ بالبكاء حتى سمع بكائه كل من في القصر ، وهم لا يعرفون سبب بكائه إلا أنهم رأوا ذلك بعدما جلس مع ركاب السفينة ، ثم قال مواسيا لنفسه : لي أكثر من خمس سنوات مفارق للبصرة ، وقد اتفقنا على سنتين وقد مضت السنتان ، فهي معذورة إذا نكحت رجلا غيري ؛ وإن قدر الله لي رؤيتها سأهبها الطير ، وأبارك لها في زوجها ، والحمد لله على كل حال .

عاد الملك بعد رحلة طويلة ، فخرج الناس لاستقباله وعلى رأسهم حسان ، وبعدما وصل الملك لقصره ، وجلس على كرسيه ، فأخبره حسان عن أحوال الجزيرة، وحدثه بما جرى منذ غيابه ، وذكر له قصة القتيل ورئيس الحرس ، وتجاهل قصة السفينة البصرية التي جنحت على ساحل الجزيرة ؛ ولكن الملك علم بها ، وسأل حسان عنها، ولماذا لم يسترقوا رجالها ؟ فرد عليه حسان بغيظ : ألم أكن الملك ؟! فقد عفوت عنهم .

فصاح الملك قائلا : هذا ليس من حقك كان عليك أن تحتجزهم حتى أعود .

فرد حسان بتحد : أشفقت عليهم .

فصاح الملك من جديد : نحن قلوبنا لا تعرف الشفقة على الأغراب .. هذا خطأ كبير

وستعاقب عليه .. ولقد فتكت بأصحابك الصينيين الذين رافقوني في رحلتي .

فصاح حسان بحدة : ولماذا ؟!

فرد الملك بتعجرف : لقد أغضبوني فطعنتهم بخنجري هذا فماتوا ..

خطف حسان الخنجر منه وطعنه به فأرداه قتيلا، وقتل من تمرد من أعوانه، وأعلن نفسه ملكا على البلاد ، وكان حسان قد استمال رجالا من الحرس قبل عودة الملك ، وكان قد استعد لمثل هذا اليوم ، وخضعت له الجزيرة ، فوهب رجاله المال والنساء ، وكان قد استمال كثيرا من الغرباء للوقوف معه ، وبعدما هدأت عاصفة مقتل ملك الجزيرة ، وقد نجح حسان في السيطرة على الجزيرة ، واستولى على مركب الملك ، وجهزها للرحيل ، واستعد من ظل حيا من البحارة الصينيين للرحيل معه ، وأعلن في اجتماع عام لأهل الجزيرة برغبته في الرحيل وهجر الجزيرة ، وأعلن أيضا أن كل شخص يريد السفر وترك الجزيرة فليستعد لذلك ؛ فكل الغرباء ابدوا رغبتهم بالرحيل معه وترك هذا المكان ، فعين لهم ملكا جديدا ممن ساعدوه في السيطرة على الجزيرة ، وكان حسان قد نشر تعاليم الإسلام التي يعرفها بينهم ، فعلمهم الصلاة والصيام وبعض سور القران ، ثم ودعهم وداعا حارا خاصة الذين أحبوه وأحبهم ، فتركهم يعبدون الله ويحبون الدين الجديد ، وسافر على دموعهم الحارة على فراقه ، وأوصى ملكهم الجديد على إكرام كل مركب أو سفينة تنزل بلادهم، وحثه ورغبه على عدم ظلم الرعية والإحسان للجميع الذكر والأنثى والصغير والكبير .

وطارت بهم السفينة بين أمواج البحر الهائلة ، وكان حسان قد استخرج صندوقه الدفين صندوق الزجاج ، واستمرت الرحلة عشرة أيام بدون مشاكل وعواصف أو نقص بالماء والطعام حتى رسوا على شاطئ مدينة ساحلية ، فوجدوا أن أهلها مسلمون ففرحوا بذلك فابتاعوا طعاما ، ولم يمسهم أحد بسوء ، وسألوا عن طريق البصرة ، ثم استأجروا ربانا ومساعديه ليستطيع أن يقودهم للبصرة وسواحل الخليج وقال لهم حسان : دلونا على العراق سالمين ولكم هذه السفينة جزاء وفاقا .

وكان بعض الغرباء نزلوا المدينة وتركوا أهل السفينة ، وبعدما تزود أهل السفينة بالقوت والماء الطيب دخلوا عرض البحر متجهين للعراق عن طريق الخليج العربي ، وكانت السفن في ذلك الزمان تعتمد في قطع الأميال على قوة الرياح واتجاهها ، وبالطبع البحر كثير العواصف والأخطار وارتفاع الأمواج ، فخاضت سفينة حسان عواصف هوجاء ، واصطدمت بسفينة في عرض البحر ؛ ولكنها لم تتعرض للانشطار ؛ وإنما اتخذوا قرارا بالهبوط في أقرب مكان لمعالجتها وإصلاح الأضرار التي لحقت بها جراء الصدمة ، فاقتربوا من أحد السواحل ، فقام الربان ومساعدوه بتصليح العطب الذي أصابها ، ولما تم لهم ذلك عادوا إلى جوف البحر يواصلون الرحلة إلى سواحل الخليج التي لم يبق للوصول إليها سوى بضعة أسابيع وشاء القدر أن يضرب البحر إعصارا ، فاندفعت السفينة إلى وسط البحر الكبير وارتفع الدعاء والاستغفار والتوبة للواحد القهار ، ونجت السفينة بفضل الله من الدمار ؛ ولكنها رست في وسط جزيرة بحرية كثيرة الثمار ، فهبطوا إلى الأرض لشكر الملك الجبار ، واتفقوا على البقاء فيها حتى تخف حدة الإعصار ويستطيعون غوص البحار ، وكانت الجزيرة جميلة وكثيرة الخضرة والأزهار والأشجار ، وكالعادة دفن حسان صندوقه الزجاجي خفية عن الركاب ، وقام الركاب بالتفرج على الجزيرة بالقرب من السفينة ، فشاهدوا الأطيار الكثيرة والغريبة الأشكال والأصوات ، وتمتعوا بأكل الفواكه والطيبات ؛ ولكنهم فجأة سمعوا زئير سبع الغاب ، فتراكضوا إلى السفينة قبل ظهوره مسرعين خائفين ، وتسلق حسان إحدى الأشجار فأحاطت به الوحوش من كل مكان ، فاستغفر الرحمن وطلب النجدة والعون على نوائب الأيام من رب الكون الحكيم العلام ، وأمضى ليله بين أغصان الأشجار، ولما أشرقت الشمس أخذت تلك الحيوانات تنسحب من حول السفينة والأشجار إلا سبعا واحدا نام تحت شجرة حسان ولم يتحرك كباقي القطعان ، فأسقط عليه ثمرة فزمجر زمجرة تردد صداها في كل الجزيرة ، فكرر الرمي لعله ينصرف ، فابتعد وهو حانق على هذا الجاني ، ومشى حسان بين

الأشجار والأغصان حذرا من غدر ذلك السبع حتى وصل إلى القوم المتحصنين في السفينة ، وذهب حيث الصندوق الزجاجي وأخرجه بقلق وتوتر وقفز بسرعة إلى الماء ، وقد شعر به ذلك السبع فانقض عليه؛ ولكن بعد فوات الأوان ، وحسان قد غطس في الماء ، فنجا من بين براثن الأسد وإلا لتغذى عليه وافترسه ، وانتشل البحارة حسان وإلى المركب رفعوه ، وفكوا الحبال فعادت السفينة للبحر ، ووقفت الوحوش تنظر إليهم من أطراف الماء ؛ كأنها مودعة لهم أو نادمة على أنها لم تكسب ضحية منهم، وابتعدوا عن الوحوش الضارية التي تملا هذه الجزيرة ، وحسان يعجب لقدرة القادر وخالق هذه الأكوان ، ففي بعض الجزر يتعرضون لخطر بني الإنسان، وأخرى يأتي الخطر من الحيوان، وسارت السفينة بهدوء لسكون الإعصار ، وسعدوا وفرحوا عندما دخلوا الخليج ، ونزلوا على أحد المواني للتزود بالقوت والماء الصالح للشرب ، وبعد حين ركب من ركب معهم إلى العراق ، وبعد أيام كان حسان في الميناء القريب من مدينة البصرة فخر ساجدا حامدا للرحمن على عودته لهذه المدينة العربية سالما بعد بضع سنوات، وودع القوم ودفع المركب للربان وزبانيته، واستأجر حمارا إلى البصرة وإلى سوق التجار ، وهو في شوق ليرى صديقه جعفر الموج ، وكم سر ذاك عندما رآه حيا يجلس في باب الدكان ! فسلم عليه سلام الأحباب بعد طول غياب فقال جعفر الموج : والله هذا الصوت ليس غريبا عني .. من ؟ حسان المصري ! .

وتعانق الرجلان واحتضنه حسان ورحب جعفر به وقال : الله أكبر ! أما زلت على قيد الحيات؟!.. لقد قطعنا الأمل منذ سنوات .. ألف ألف الحمد لله على السلامة .

بكى حسان وقال : جئت إليك مسرعا من البحر، وكلي شوق إليكم ، لي أكثر من خمس سنوات مضت في البحار والقفار والأمصار .

فقال جعفر ورنة الحزن في صوته : أهلا وسهلا .. فلنذهب إلى البيت وتستريح ثم نسمع منك كل الأخبار .

وأخذه معه للبيت ، وأدخله الحمام فأزال أدران السفر وتناولا الطعام ، وسمح له بالنوم حتى

يرتاح من وعثاء السفر ، وفي ثاني الأيام كان الشيخ جعفر الموج يستمع لأخباره الغريبة في رحلته البعيدة ، وعندما وصل الكلام للطير الذهبي أراد أن يخرجه من صندوقه الزجاجي فلم يجده فصاح : سرق العصفور يا سيدي جعفر أعندك جواد ؟

فقال جعفر : ما الأمر ؟!

فقال حسان : أريد أن أصل البحر عاجلا قبل فوات الأوان .

أعطاه جعفر جواده فأسرع عليه حيث تتجمع السفن وبحث عن سفينته، فلم يجدها فقد قالوا له إنها تحركت قبل قليل .. فاستأجر قاربا ولحق بالسفينة وبعد ساعات كان يصعد عليها فدهش الربان لما رآه وقال: ما الذي حدث يا سيدي حسان ؟

فقال له : من أجل خاطري ارجع للبصرة فورا لأمر مهم.. لقد سرق مني العصفور الذي دفعت سنوات من عمري للإتيان به أرجوك أسرع .

أمر الربان مساعديه بإدارة دفة السفينة للبصرة ثانية ، وبعد ساعات كانوا يرسون مرة أخرى في ميناء البصرة ، فقال حسان لركاب السفينة : يا قوم من أخذ منكم العصفور من الصندوق الزجاجي ؟ .. لا أحد .. هل نزل أحد منكم غيري البصرة ؟

فقال القبطان : رجلان فقط .

فقال حسان : أيها القوم أنا مستعد أن ادفع عشرة آلاف درهم ثمن العصفور .. من يعرف عنه شيئا فليتكلم ؟

فقال أحد مساعدي القبطان : أنا رأيت العصفور ـ وأشار لأحد الرجال ـ مع الرجل القصير وظننته له .

فتقدم منه حسان وقبض على عنقه بعنف وقال : ماذا فعلت بالعصفور ؟

فقال الرجل وهو يرتجف: دعني سأقول لك دعني أشم الهواء.. لقد حيرتني بصندوقك منذ أن خرجنا من الجزيرة التي كنت ملكا عليها وأنت حريص على الصندوق ، كاد الأسد يفترسك من أجل الصندوق فوقع في نفسي أخذه ، وعندما وصلنا البصرة استغفلتك وأخرجت

العصفور من صندوقه الزجاجي فوجدته قطعة من الذهب ، ولكن بعد انصرافك نطق العصفور ، فخفت منه وظننت أن في داخله شيطان ، وشاهده أحد الرجلين الذين نزلا البصرة فبعته له .

فقال حسان: انزل لنبحث عنه .. وأنت يا صاحب السفينة لا تتحرك قبل أن أجد العصفور .. فانزلوا في أي خان على نفقتي الخاصة ولما أودعكم سأحدثكم بقصة هذا العصفور .

فقال القبطان : عليك بتجار الذهب يا ريس حسان .

حسان يعرف صورة الرجلين ولكن أمر البحث عنهما في مدينة كبيرة كالبصرة ليس أمرا هينا ، وتمنى لو أن الأميرة بدور ظلت أميرة في البصرة لاستعان برجال الشرطة في البحث عنه ؛ ولكنه قال في نفسه : سأعتمد على الله الفرد الصمد .

وذهب يسأل عند باعة الذهب والجواهر، ولم يطل البحث فقد وجد ضالته عند أحد الجوهريين ووجد أن الرجل قد باعه لهم بخمسمائة درهم ، وكان الرجل قد اشتراه من الرجل السارق بخمسين درهم ، والأعجب من ذلك أن الصائغ الجوهري كان في خوف من الطير ، وظنه طيرا مسحورا بداخله عفريتا من الجن ، فقال حسان : هو ما تقول ، ولن أكثر معك الكلام سأعطيك سبعمائة درهم .

فوافق الرجل الصائغ على الفور ، وأخرج الطير وأعطاه لحسان ، وقبض المبلغ ، وعاد حسان للميناء وشكر ربان السفينة وصفح عن السارق ، واختصر له حكاية الطير، وودعهم ، وعاد لدكان جعفر الذي كان في انتظاره على أحر من الجمر، فابتسم له حسان وأخبره بما فعل ، وأن الله رد عليه عصفوره الذي أضاع سنوات من العمر من أجله ، وأمسك الشيخ جعفر بالطير ، وقلبه أكثر من مرة ، فهو عصفور مصنوع من الذهب والفضة ، وكان فمه مفتوحا ورأسه يتحرك ، فقال لحسان: أهذا هو الطير الذهبي الذي كانت الأميرة بدور ترغب بتملكه ؟! .. ما عليه من الذهب لا أظن أنه يعادل مائة درهم ؛ لأنه مخلوط بالفضة.. وربما النحاس أيضا .

وبينما جعفر مسترسل في الكلام والتعليق على العصفور ضحك العصفور وهو بين يديه فطرحه

أرضا ، فقد جفل منه ، ثم بكى الطير ، فتناوله حسان وهو يضحك ، فأخذ العصفور بالصفير المحزن .. وكان جعفر يقول : أعفريت بداخله ؟!

وكأن الحزن خيم على الوجوه على بكاء طفل مصاب ، فتعجب جعفر لهذا الطير، وروى حسان حكايته من جديد حتى تمنى جعفر أن يكون هذا العصفور ملكه ، فقال جعفر : إنك بطل يا حسان!.. فعلا بطل .. هل كانت الحسناء البصرية تعرف سر هذا الطائر ؟!

فرد حسان : لابد أنها تعرف ذلك .. فلقد ذكرت أنها قرأت عنه .. ولكن ما أخبارها فلقد علمت أن والدها هلك ورحلت لبغداد دار السلام .

فقال جعفر بحزن وتأثر: هذا الكلام نتحدث فيه في البيت ، اركب حصانك وأنا خلفك وأوصى جعفر الموج غلمانه وأولاده على العمل ، وهناك في البيت دار الحديث بينهم عن رحلة حسان لتلك البلاد ، وكان جعفر يبدي إعجابه بحسان عند كل قصة يسمعها ثم قال : إن رعاية الله كانت معك وترعاك فهذه دعوات والديك ورضاهما عنك .. أصبحت تدعى الملك حسان في تلك الجزيرة .. وتركت الملك باختيارك .. أهذا من أجل الحب والعشق ؟

فقال حسان: تركت كرسي مملكتي بعدما عرفت بأخبار بدور المحزنة التي سأسمعها منك ثانية ومفصلة .

فقال جعفر : أهنئك مرة أخرى بعودتك سالما ظافرا .. وحمدا لله على سلامتك .. إنها حكاية تستحق أن يسمعها الخليفة وأن تكتب بماء الذهب .. أما بدور الأميرة فبعد رحيلك أرسلت جاريتها لتراك مرة أخرى وتجتمع بك ثانية ؛ ولكنك كما تعلم أسرعت بالرحيل ، وكانت كلما تدخل السوق يوم الجمعة تجلس عندي بضع دقائق وتقول بأسف وندم " يا عم جعفر .. عشقت ذاك الشاب ، وأسفت عن عدم تراجعي عن طلبي ، وندمت على فقده " وتنصرف ، وأقول لك إنها كانت صادقة ، فكانت كلما تراني تذكر لي ندمها وشوقها ، وتتمنى أن تعود لها ؛ ولكن إرادة الله حكمت وغلبت لا مرد لها ، مضت الأيام وانتهت السنتان وما سمعنا بأخبارك فقلنا أصابك ما أصاب الذين سبقوك ، وانقطعت أخبارهم منذ فارقوا البصرة ، ثم فقدت

والدها وعين أمير جديدا للمدينة ، فهاجرت هي واخوتها إلى بغداد ، وكلما كانت تزور البصرة تزورني ؛ ولكن لها أكثر من سنتين ما جاءت البصرة ، وسمعنا أنها تزوجت من أبناء الأمراء في بغداد ؛ وهذا خبر صدقني غير مؤكد .. وبما أنك أتيت سالما يا ولدي سننزل بغداد سوية ونسأل عنها وعن أخبارها ؛ فإن كان لك نصيب فيها ستراها ، وإن لم يكن فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فقال حسان : متى يكون السفر؟

رد الشيخ جعفر : وقتما تشاء .

فقال حسان: بأقرب وقت يا سيدي جعفر وأعجله .

فقال جعفر: ابشر أيها الأخ العزيز مع أول قافلة ـ إن شاء الله ـ نرحل إلى دار الخليفة .. وأنت ضيف عندي حتى نرحل .



لقاء الأميرة بدور



رتب جعفر أموره وبعد يومين رافقا إحدى القوافل السائرة لبغداد ، وبعد أيام وصلاها بسلام ودون اعتراض ، فنزلوا على أبي ماجد الذي سعد للغاية برؤيتهم واستقبلهم كأعز الأصحاب وقد تذكر الفتى حسان ، وأتى ماجد مسرعا واعتنق صاحبه المصري ، وهو لا يصدق أنه يراه حيا يرزق ، وساقهم ماجد لبيته ، وقد أعد لهم وليمة عظيمة ، وكان القوم في شوق لسماع قصة حسان ، فترك الشيخ جعفر يسردها على مسامعهم بالتمام والكمال ، مما سحر الجميع ، وأدهش حسان نفسه حتى ظنه يتحدث عن بطل آخر ، فعقب قائلا : إنك حفظتها أكثر مني هذا يا سادة ما حصل لي من أجل هذا الطائر .

وأخرجه من صندوقه الزجاجي ليشاهدوه فلما قلبوه شمالا ويمينا ، فما كان في نظرهم سوى تحفة فنية ؛ ولكنهم لما سمعوا ضحكه وجموا بداية ثم ضحكوا ، ولما بكى دمعت العيون ، فلما أخذ بالصفير المحزن هجم على وجوههم الحزن ، وكانوا قد ظلوا ينتظرون وقته أي وقت صوته فعندئذ غيروا رأيهم بهذا الطير، وأقروا بأعجوبته وسحريته وقالوا : إنه تحفة نادرة تستحق أن تهدى لأمير المؤمنين لتبقى في القصور العامرة !

ثم جاء دور الحديث عن الأميرة كيف سيعرفون أخبارها ؟ وكيف يتصلون بها في هذه المدينة الكبرى عاصمة الدنيا ؟

فوعدهم ماجد ابن بغداد بأن يعرف أخبارها ، ويتحرى عنها وعن أسرتها ويعرف مصيرها وأين تسكن فقال : هذا الأمر علينا أيها الأصدقاء الأفاضل .. فأنا سبب هذه القصة .. وأسأل الله أن أجمع بينكم ، ونرجو الله أن لا تكون قد تزوجت كما سمع والدنا جعفر.. فغيبة البطل

حسان طالت وزادت عن موعد الاتفاق للأحوال التي مرت به أثناء الرحلة إلى الصين .. وقد مات والدها أثناء ذلك .. ففي خلال تلك السنوات تحدث أشياء وأشياء .

وقام ماجد بالسؤال عن أسرة الأميرة وأهلها وبعد حين جاء بالخبر اليقين ، فقد تبين لهم فعلا أن الأميرة بدورا قد تزوجت من أحد أبناء الأمراء ؛ ولكن حياتها الزوجية لم تطل وتم الطلاق بعد أقل من شهر ، وهي الآن نزيلة دمشق الشام مع أخيها الكبير الذي عين عاملا وأميرا على الشام منذ سنة من الزمان ، فودعهم حسان أحر الوداع ، وانتقل يسابق الريح إلى بلاد الشام ، وقد ارتحل معه صديقه ماجد ليساعده في الوصول إليها وليشهد نهاية القصة كما بدأت به ، وبعد أيام كانوا ينزلون دمشق مدينة بني أمية وحاضرة ملكهم أيام خلافتهم للعباد ، وكان دخولهم ليلا ، فقضيا ليلتهما في خان ، وحسان مضطرب ومشدود الأعصاب وكله شوق وأحلام ، ولما سألوا عن الوالي الأمير فأخبروا بأنه خرج إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وأخذ معه الكثير من أسرته ، ومنهم الأميرة بدور ، فما عليهما إلا الانتظار بضعة شهور ، ريثما يعودون من الديار المقدسة ، وما أطول الأيام كما تعلمون على أهل العشق والغرام ! وتعرف فارسنا على دمشق ومياهها وبساتينها ومساجدها وأهلها ، وفي ذات نهار بعدما عاد ماجد من العراق ؛ لأنه لما رأى الوقت طويلا نزل العراق ثم عاد ، فبينما هما يجلسان عند صديق لماجد من أصحاب الدكاكين الكبيرة والذين يبيعون الثياب الحريرية الجميلة ـ وكان الوقت ظهرا ـ دخلت الحانوت ثلاث من النسوة المتلفعات بمروطهن السوداء ، فاقتربت إحداهن من حسان وقالت بصوت غض واهن : أمصري أنت أيها الشاب ؟

نظر إليها الرجال الثلاثة وقال حسان : نعم يا أمة الله .. أتريدين مني شيئا ؟!

بكت المرأة حتى سمعوا بكائها ، فعجبوا لها ، وأخذت بهم الظنون هنا وهناك ، فأحضروا لها مقعدا وطلبوا منها الجلوس وقدموا لها الماء ، ولما هدأت قليلا ومن خلال دموعها سمعوها تقول مرة أخرى : اسمك حسان بن عبد الرحمن ؟

خفق قلب حسان بشدة فهمس : بدور الأميرة بدور ؟!

قالت بحياء وبكاء : نعم .

وفقدت الوعي فقد أغمي عليها تأثرا ، فقامت النسوة اللواتي برفقتها بمعالجتها برش بعض الماء على وجهها ، ثم نقلوها إلى بيتها ، وجميع من رأى المشهد يعجب للذي حدث وقال ماجد : ألم يقولوا أنها ذهبت مع أخيها إلى الحج ؟!

فقال حسان بضعف وخوف : سوف نسأل الجارية .. مسكينة لقد أصبحت هزيلة يا ماجد .. إنني أتذكر أول مرة رأيتها فيها عندما رأيتها بسوق البصرة على سرج الجواد .

وبعد حين يسير أتت جارية تشكرهم وقالت لحسان : أين تسكن أيها المصري ؟

فذكر لها اسم الخان وسألها ماجد : ألم تذهب سيدتك للحج مع أخيها ؟

قالت : بلى ؛ ولكنها مرضت أثناء الطريق فأمر بعودتها ، وكانت قادمة لشراء بعض الثياب ، فلما دخلنا المكان التفتت ورأت هذا الشاب ـ وأشارت لحسان ـ فعرفته من أيام البصرة .

وانصرف ماجد وحسان وعادوا لصاحبهم الحانوتي ، وقص عليه ماجد بعض القصة وانصرفوا للخان بأمان الله ، وأما بدور فلما استيقظت وخف وجعها سألت جاريتها عن حسان فقالت الجارية : انصرف الرجلان منذ وقت فقد ذهبا للخان ، فنحن في الليل يا سيدتي الأميرة فتساءلت الأميرة : هل هو حسان الذي أتانا في البصرة يا أميمة ؟ .. لقد عرفته بعد كل هذه السنوات .. الحمد لله أنه مازال حيا يرزق .. أريد أن أراه .. افعلي شيئا يا أميمة ؟

فردت الجارية على سيدتها : كيف أفعل ؟ في الصباح نرسل إليه أو نذهب إليه.. ها هو حبيب القلب قد ظهر يا سيدتي .

فقالت الأميرة بأسف : ليتني تزوجته من ذلك الزمن ؛ ولكن قدر الله وما شاء فعل .. فلنصبر حتى ينجلي هذا الليل الطويل.. كنت أحدق فيه وأنا غير مصدقة .. قلت إنه شبيه به شبها كاملا ولكني تجرأت ووجدتها فرصة سانحة عليّ أن أكسبها قبل أن يضيع ..

فقالت الجارية مقاطعة سيدتها : اطمئني سيدتي إنه هو قادم يبحث عنك ، فهم كانوا يرون أنك مع أخيك في الحج .. وهم في انتظار عودتك من الحج ..

فقالت بهوى وصبابة العشاق : أريد أن أراه الآن يا أميمة .. قلبي يهتز بقوة في صدري رغم مرور كل هذه السنوات الست .. آه .. آه . يا أميمة !

فقالت الجارية : الصبر طيب يا مولاتي ، وهو مفتاح كل ضيق وحل لكل مشكلة .. وما الصبح ببعيد ؟!

وبالطبع جفن حسان لم يعرف النوم في تلك الليلة .. لقد عادت به الذكريات إلى البصرة عندما وقف ينتفض كالعصفور المبلول ينظر إليها من عتبة دكان جعفر الموج في سوق البصرة الكبير تذكر لقاءهما في بيت الشيخ جعفر .. ثم يوم طلبها للزواج ..

ولما استيقظ ماجد من نومه وجد صاحبه مصفر اللون محمر العينين ساهي الطرف فصاح به : وي كأنك لم تنم الليل ولم تذق طعمه ؟!

فقال حسان وهو ساهم الفكر: يا صديقي العزيز تجدد الأمل والأحلام .. واستيقظ العشق الذي بليت به من جديد .. هل يا ترى ـ يا ماجد ـ تمضي الأمور ميسرة وأتزوج فتاة الأحلام بدون عسر وعقبات ؟

فقال ماجد وهو يحاول تخفيف القلق عن صاحبه المصري : إن شاء الله ستتزوجها قبل أن تخرج من الشام ، وتذهبا سوية إلى أهلك الذين لابد أنهم يعتقدون أنك قد فقدت أو مت وقد اختفت أخبارك .. قم صلي الفجر ثم نم حتى الضحى .. لنذهب لزيارتها والاجتماع بها لعل أعصابك المشدودة وأحلامك تهدأ وتستقر .

ولما استيقظ حسان من نومه القلق كانت جارية بدور في الخان تتحدث معه لتخبره بشوق سيدتها الكبير له ورغبتها بلقائه خفية ، فتم الاتفاق أن يكون اللقاء في بيت من بيوت أصدقاء ماجد في الشام ، وكان ذلك اللقاء المنتظر فقد جاءت الجارية بسيدتها للبيت المذكور ، ومن ثم أتى حسان وماجد وصاحب ماجد وجلس حسان مع بدور وأميمة ، وجلس الرجلان في إيوان البيت في انتظار انتهاء اللقاء بين العاشقين بتدبير أمرهما ، فكان أول اللقاء دموعا ونحيبا بين الطرفين حتى أن ماجدا وصاحبه سمعا صوت البكاء والنشيج ، واعترفت الفتاة بشجاعة أمام

الفتى بحبها له وبندمها على إرساله إلى الصين ، وقصت عليه أخبارها ، وقص عليها أهم أحداث رحلته بتأنٍ وإسهاب وأراها الطير الذهبي بكل وله وغرام وقال : هذا مهرك يا ابنة الاجواد .. عندما يأتي موعد كلامه ستسمعينه وتسرين به

رفضت وتمنعت بادئ الأمر أن تأخذه فقال لها : يا سيدة الحسن والجمال .. فقد يسر الله لي إحضاره وأن أعود بسلام .. فكيف سيكون الزواج ؟

فقالت : عندما يعود أخي أمير الشام وأهلي من رحلة الحج سأحدثهم بالأمر .. فهم يعلمون هذا الموضوع منذ أيام البصرة يا سيدي الفارس الجميل !

فقال : ما أطول الانتظار أيتها الأميرة الجميلة ! كيف سأصبر عن بعدك هذه الأيام أما من حل آخر ؟

فردت بشغف العاشقين المعروف : سأدبر الأمر مع أميمة .. وسأراك في كل وقت حتى يرجع أخي من الحجاز والآن إلى اللقاء .

وخرجت مع جاريتها ، وأخذت العصفور في صندوقه الزجاجي لتسمعه، فقدم حسان وماجد الشكر الجزيل لصاحب البيت الذي تطوع بخدمتها ، وما بخل عليهما باللقاء والاجتماع .

سرت بدور من الطير الذهبي ، وأعجبت به كل العجب وقالت : إنه تحفة نادرة من تحف الزمان !

وقد عجب منه أهل البيت جميعهم عجبوا من الطير الصيني ، وقد حاولوا معرفة الطريق التي وصل فيها الطير للأميرة ، ومن أتاها به أم كيف اشترته ليحصلوا على مثله ؟

عاد الوالي من أرض الحجاز إلى دمشق الشام ، وبعد أن استراح من وعثاء السفر الطويل ، وقدم الناس وهنئوه على العودة سالما حاجا، مباركين له الحج ، أخبرته بدور بقصة الطير الذهبي وأرته إياه ، فأصابه العجب هو الآخر، وتذكر قصتها وأيامها في البصرة ، وذكرت له مجيء حسان بهذا الطير، وأنه الآن في دمشق في انتظاره ، فأرسل وراءه فأتاه حسان بأسرع من الطير ، فاستقبله الأمير وسمع لحكايته ، وبشره بتحقيق رغبته بالزواج من الأميرة بدور بدون معوقات

وتم عقد الزواج سريعا ، وقد حضره السادة والأعيان ، وفرح حسان بزوجته الأميرة ابنة والي البصرة التي سمع بذكرها في مجلس بمصر ، فوافقت هوى في نفسه ، فشد رحله للعراق وخطبها بالبصرة وتزوجها بدمشق الشام ، وبعد شهر من الزمان أخبر حسان الأمير برغبته المسير لبلاده مصر والأوطان ؛ ليحظى برؤية الأم والأب والاخوة ، وليباركوا هذا الزواج بعد غياب طويل عنهم ، فما اعترض صاحب الشأن وأوصاه على الأميرة خيرا ، وأبان له أنها غريبة وبعيدة عن الأخ والعم والصديقة ، فتعهد له حسان بحسن المعاشرة والمحافظة عليها ، وذكره بقطعه المسافات والأميال ليحظى بقربها والزواج منها فلن يفرط فيها ، وسيكون لها الزوج والأخ والقريب ، ولن يحرمها من زيارة الشام ، ثم أوصى الأمير أخته على زوجها ومراعاة حقوقه الشرعية عليها ، وحثها على دوام المخابرة والاتصال ، وكان ماجد العراقي بعد زواج صاحبه المصري من الأميرة بدور قد عاد للعراق ليذكر لاخوته وأصحابه نهاية القصة ، وأن الفارس المصري تزوج من الأميرة ، وأنه يستعد للسفر لبلاده مصر في أسرع زمان .



وجهزهم الوالي بقافلة وحرس من جنده ليصلوا مصر بسلام ، فمروا بطريقهم على بيت المقدس ليصلوا بربوعه صلوات لرب السموات والأرض، وقد أمضوا في ربوعه أياما وساعات ، وفي غزة كان لهم مقال وقصة وأخبار ، فقد تعرضت الأميرة بدور للخطف والاغتيال ، وكما قال الرواي : كانت الأميرة وجاريتها في بيت من بيوت غزة هاشم ، وذهب حسان للسوق مع الغلام الذي أهداه له أمير دمشق لشراء بعض الحاجات للبيت ، وكان الجند الذين رافقوا حسان قد عادوا عندما وصلوا بيت المقدس ، فقد رغب حسان أن يبعد عنهم الأنظار فوجود الجنود يلفت نظر الناس ، وبينما الأميرة والجارية في البيت دخل عليهن ثلاث نسوة متخفيات وسألن عن الأميرة بدور، فأدخلتهن الجارية على الأميرة بحسن ظن واطمئنان ، فطلبن منها الطير

الذهبي بدون مماطلة ، فأنكرت الأميرة وجوده معها ، فهددها أحدهم بالموت والوبال ، فقد كان أحد النسوة الداخلات رجلا ، فدفع الأميرة فألقاها أرضا دون شفقة ورحمة ، وفتش البيت والمتاع هو والنساء اللواتي معه بأسرع من عفريت سليمان ، وهددها ثانية بالموت والخطف إذا لم يحصل على الطير الذهبي، ولما رأت الجارية الخطر المحدق بسيدتها ، وأنها قد تذبح دفعت إليه الطير ، فأخذوه وانصرفوا مسرعين مختفين عن الأميرة والمدينة ، ولما رجع حسان من السوق ووجد الأميرة أرضا تبكي والدماء تنزف منها وعلم القصة فقال : يا مولاتي لاتتأسفي على الطير ، وسيكون عندك قبل أن ننام .. اهتمي بسيدتك يا أميمة .. ولا تحاولي منعي من إحضاره يا ابنة الكرام .

دخل حسان على حاكم غزة هاشم وأخبره بما جرى لأخت أمير دمشق زوجته الأميرة بدور ، وطلب منه المساعدة في العثور على المجرمين قبل مغادرتهم غزة ، وبالفعل غضب الأمير لهذا الاعتداء السافر في مدينته ، وأمر الجند والشرطة بالبحث عن السفلة الأنذال ، وأصر على رئيس الشرطة إحضارهم قبل هبوط الظلام .. وسار حسان لباعة الذهب والجواهر ، وتحدث معهم بشأن الطائر ، فما وجد عندهم أي خبر عنه ، فعاد للبيت وسأل زوجته بعد أن حدثها بما فعل قائلا : ونحن في بيت المقدس هل سمع أحد صوت الطائر ؟

فقالت بدور: حدثت معي حكاية ونحن في بيت المقدس ، ولم أعطها الاهتمام الكافي .. وهي كما تذكر لما نزلنا بيت المقدس الشريف ، وعرفت بعض النساء أنني أخت والي دمشق ، فأخذن يترددن عليّ للسلام والحديث معي ، وفي ذات يوم وبينما نحن نسمع لصوت العصفور دخلت امرأة علينا فعجبت منه ومن صنعته وطلبته مني ولو بمائة ألف دينار ، فقلت لها بعض قصته ، وأنه ذكرى جليلة القدر عندي ، فأبت إلا أخذه ودفع ثمنه ، فاعتذرت لها بأدب وأنه ليس للبيع ولا للأهداء، فأكدت رغبتها العظيمة في امتلاكه ، فغضبت منها وطردتها ، فهددتني بالويل والهلاك .. ولم أحب أن أذكر لك هذه القصة خوفا من الفتن والمشاكل .

فقال : أتعرفينها يا ابنة الاجواد ؟

فقالت وهي تنظر إلى أميمة : أتذكرين من هي يا أميمة ؟

فقالت: إنها زوجة من .. يا أميمة .. كما أذكر أنها زوجة أحد وجهاء المدينة .. لكنني نسيت من هو زوجها .

فقال حسان : حسنا سنعود إلى بيت المقدس ، وسوف نغير من ملابسنا ، ونظهر الفقر وضعف الحال .. وذلك غدا صباحا ـ إن شاء الله ـ فهذه المرأة لابد أن لها يدا في الخطب ؛ لأن الذين جاءوك جاءوا من أجل العصفور .

غادر حسان غزة عائدا لبيت المقدس ، واستأجر مسكنا أنزل في زوجته والخدم ، وبدأ في السؤال عن المرأة المذكورة التي لم تكن الإ زوجة أخ حاكم بيت المقدس ، إنها زوجة سرحان فوضع حسان خطة للتأكد من أن لها علاقة بالعصفور أم لا، والخطة أن تذهب إليها أميمة خادمة بدور وتسألها مباشرة عن الطير وترى ما هو رد الفعل عندها عندما تفاجئها بالأمر .

فقالت بدور: إنها تعرف أميمة يا حسان .. ما رأيك أن تخبر الأمير زيدان حاكم المدينة المقدسة ؟

فقال : فكرت بذلك ؛ ولكنني لا أريد أن أثير بين الاخوة أي مشكلة ، أريد أخذه بهدوء وكأن شيئا لم يحدث .. فأميمة عندما تتحدث مع المرأة قد تستطيع أن تحصل على شيء ما ثم أتصرف

ذهبت أميمة وزارت زوجة سرحان التي تفاجأت برؤيتها فعرفتها وارتبكت فقالت لها : ما الذي أرجعكم ؟!

فقالت أميمة : لقد تعرضت الأميرة للاغتيال ، وسرق منها الطير الذهبي الذي تعرفينه جيدا وقالوا إن السارق في بيت المقدس فعدنا .

فقالت المرأة : ومن قال ذلك ؟!

فردت الجارية : عرفاء الشرطة في غزة ، وسيأتون للأمير زيدان لمتابعة البحث عن اللصوص وعن عصفور الأميرة .

فقالت المرأة : وأين الأميرة ؟!

فقالت الجارية : بقيت في غزة بحماية أميرها ..وأتيت وسيدي للمساعدة في معرفة اللصوص لأنني رأيتهم يوم الحادثة .. وأنا التي دفعت إليهم بالطير ؛ ولأن سيدتي قد أصيبت بأذى منهم

وعادت الجارية لحسان وقصت عليه الحوار، فشكرها على حسن عملها وفطنتها وقال : من كلامك معها ومن ردة فعلها المرتبكة تدل على أن لها علاقة بالجريمة.. وسأفعل حيلة بسيطة تخدعها ونحصل على العصفور .

لبس حسان ثوبا يشبه ثياب حرس الأمير المقدسي ، وذهب لبيتها وطلب الحديث معها على أنه رسول من عند الأمير زيدان قائلا : أرسلني الأمير وقد عرف أنك أرسلت لصا وامرأتين لأخذ الطير وسرقته من الأميرة بدور البصرية أخت والي وأمير دمشق الشام ، وزوجها لا يرغب في الفضيحة وانتشار الأمر ، فأرسلي الطير معي بدون حرج .

فقالت للجندي بغضب وإنكار: قل لسيدك لا طير عندي وسأخبر زوجي بذلك

فرد الجندي بثبات : سيدتي .. الأميرة بدور أخت والي دمشق اتهمتك بذلك ، وأنك حاولت شراءه منها أثناء إقامتها ببيت المقدس ، فرفضت فهددتيها بالويل والهلاك ..والأمر إليك ؟

فضحكت الأميرة وقالت بسخرية: قل لسيدك أيها الجندي إنه لا طير عندي واتهامها باطل وافتراء .

خرج حسان مسرعا وعاد للبيت خائبا وهو يقول : الملعونة لا تفرط به .. حسنا سأفعل شيئا ما

طلب حسان من بدور أن تذهب بنفسها وتحاول معها لعلها تستسلم وتقر بجرمها ، ذهب الثلاثة في الصباح لبيت تلك المرأة ، ودخلت بدور وظل الاثنان في الخارج ينتظران خروجها ، وعندما دخلت قابلها رجل فلم يعرفها ؛ ولكن بدورا قد عرفته من صوته الرجل الذي تكلم معها وهددها بالقتل والموت ودفعها ، والذي تناول الطير من الجارية فقالت له بجرأة من جرأتها المعهودة : متى أتيت من غزة أيها الفارس ؟!

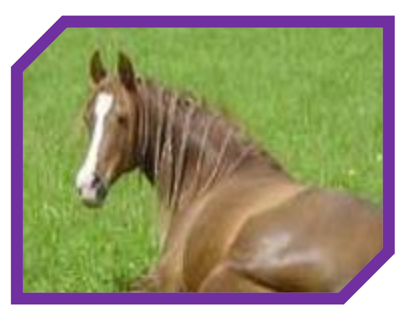
فقال وهو ينظر إليها : من أنت يا سيدتي ؟!

فقالت له : المرأة التي أخذت منها الطير عنوة .. قل لسيدتك الأميرة بدور تريدها فورا .

ارتبك العبد وخاف واضطرب وأسرع لسيدته ، وأسرعت بدور بالخروج واختفت من الشارع هي وزوجها والجارية ، وشاهدوا العبد من مكمنهم يركض في الشارع بحثا عنها وقالت لزوجها : هي السارقة .. وهذا العبد هو الذي دفعني وأخذ الطير .. عليك أن تخبر الأمير قبل فوات الوقت .

فقال : أمتاكدة من ذلك يا سيدتي ؟

قالت بأسف : نعم يا زوجي الحبيب .



ذهبوا لدار الأمارة واطلع حسان الأمير زيدان أمير بيت المقدس على ما حدث لزوجته في غزة من إهانة وضرب وسرقة الطير العجيب ، وكان الأمير زيدان منصفا وعادلا ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فقال للأميرة : أواثقة أنت مما قال زوجك أيتها الأميرة ؟

قالت : أقسم بالله العظيم على ما قلت ، وسيعترف العبد بدوره .. وأرجوك يا سيدي أن تعجل بالقبض عليه قبل أن يهرب .

طلب الأمير زيدان أخاه سرحان وزوجته وعبيدها لتراهم الأميرة بدور، فذهب الأمير سرحان وبعض الجنود إلى بيته وتحدث مع زوجته بغضب شديد ، فأنكرت ولم تقر بشيء فقال لها : البسي ثيابك أنت وجواريك وعبيدك وإلى دار الأمارة ولا تبق أحدا .

دخل الجميع في دار الأمارة ، وأتى القاضي في البلدة ، واستمع للقصة ، وطلب من الأميرة البينة والشهود ، فذكرت قصتها وما تعرضت له من الأذى في مدينة غزة ، ولم يكن معها شاهد سوى خادمتها أميمة ، واتهمت العبد بالاعتداء عليها وإسالة دمها ، وأخذ الطير الذهبي بالقوة والتهديد ، ثم نظرت في عبيد سرحان وقالت للقاضي والأمراء : إن العبد غير موجود وأنا لا

أعرف اسمه .

وأنكرت زوجة سرحان أمام القاضي ، فقامت بدور بوصف العبد أمام القاضي مما اضطر الأمير سرحان أن يقول: هذه صفة العبد سعيد فعلا عندنا عبد شرير لئيم أين هو يا زوجتي ؟

قالت : لا أدري .

فقال سرحان : أيها القاضي انظرني يوما واحدا حتى أنظر في الأمر ، وأنا بنفسي سأحضر الطير الذهبي للأميرة .

أمرهم القاضي بالانصراف وقال : يجب أن يحضر العبد سعيد لتراه الأميرة والجارية وتعالوا غدا أيها القوم .

اختفى العبد سعيد ، فصمم حسان بنفسه بالقبض على العبد الآبق ، وسار يراقب الشارع على صورة متسول ليلا ونهارا حتى رأى المرأة تخرج من البيت وجاريتها ، فتبعهما ومشى خلفهما من شارع إلى شارع وزقاق إلى زقاق ، ودخلت بيتا وجاريتها معها بعدما تلفتتا يمينا وشمالا ، واقترب حسان من الباب المغلق ، ودار من خلف البيت ، فوجد جدرا قصيرا ، فقفز عليه بخفة ودخل من بين الأشجار والتصق بأحد الغرف يسمع ويصغي فسمع العبد يهدد زوجة سرحان ويتوعدها بالذهاب إلى القاضي والاعتراف .

فصرخت فيه قائلة: اصبر أيها الحمار .. ألا يصلك الطعام والشراب والمال ؟ .. ولسوف أكافئك مكافأة كبيرة عندما يسافرون ويخرجون من البلد .

فصاح العبد : يا سيدتي ! لي أسبوعان محبوس هنا ضقت ذرعا بالمكان .. لم أعد أطيق الصبر .

فقالت بحدة: عليك بالصبر والتحمل ولسوف يبتعدان ويرحلان إلى مصر، وستأخذ جزاءك هذه آخر مرة آتيك فيها ، إذا احتجت لشيء فاطلبه من الجارية ، ولا تطلب مقابلتي ، هل سمعت أيها الغبي ؟ وإلا قتلتك وارتحت منك .. اصبر وصاحت بجاريتها : هيا يا سوسن هيا بنا .

وخرجتا مسرعتين، وحسان سمع آخر الحديث ففكر بما يفعل ، فخرج بخفة وعلم البيت

والمكان ، وعاد للبيت وارتدى ثيابه ، وذهب للقاضي وطلب منه بعض رجال العسس ، فأخذ رجلين منهم وساقهم للبيت المطلوب ، وطرق الباب وفتح سعيد الباب ظانا أن الطارق الجارية قد عادت لأمر ما ففتح الباب فدخلوا عليه وأوثقوه وسلموه لرئيس الشرطة الذي قال له : أين كنت هاربا أيها العبد ؟

وأدخلوه على الأمير والقاضي ، وجاءت الأميرة بدور وأقسمت على أنه هو الذي ضربها وهددها بالقتل، وأخذ عصفورها منها ، وشهدت الجارية بذلك، فاعترف العبد سعيد بفعلته بأنه هو الذي تبعهم لغزة لسرق العصفور، وأن مولاته الأميرة هي التي أمرته بذلك ، وأغرته بالمال والزواج من الأمة سوسن التي ذهبت معه لغزة مع جارية أخرى، واحتالوا بالدخول على الأميرة بدور التي تعرفها سوسن جيدا ، وتم الحصول على الطائر بالتهديد، وأن العصفور عند سيدته ، وجيء بها فحضرت وأمام اعتراف عبدها وجاريتها اعترفت بجريمتها وبينت أن السبب في ذلك حبها للطير الغريب وحقدها على الأميرة ، وأحضر الطير الصيني وتمعن فيه القوم فلم يروا به شيئا عجيبا ، ووجدوا أن ثمنه زهيدا ، وبينما هم يتعجبون من هذا الصراع القاتل على هذا الطائر الصغير أتى موعد ضحك العصفور فضحك فبكى فحزن فدهش الحاضرون لهذه الآلة الغريبة ، فحكم القاضي بعد ذلك بحبس زوجة الأمير سرحان وعبدها وجاريتيها ، وشكر حسان الأمير زيدان لوقوفه بجانبه رغم حساسية الأمر ، وقدم شكره للقاضي، وأخذ الطير ومن ثم سافروا على الفور إلى غزة هاشم، ولما نزلوها مكثوا فيها بضعة أيام ، ورحلوا منها للعريش ، ثم إلى بلاد مصر بلاد النيل ، وبعد أيام أخرى من الرحيل دخلوا المدينة فطفرت الدموع من بين عيني حسان لما رأى الوطن الذي غاب عنه كل هذه السنوات ، وعادت به الذكرى للوالد الحبيب والأم الرؤوم والاخوة والأصحاب ، كانت الدنيا ليلا عندما اقترب حسان من باب البيت بيت الأسرة نفس الباب لم يتغير ، قرع الباب فسمع صوت غسان أخيه يقول : من يطرق الباب ؟

فقال حسان بوجل : أخوك حسان .. افتح يا غسان .

فقال غسان كأنه غير مصدق ما يسمع : من حسان ؟!

فصاح حسان : ويحك! .. أنا أخوك حسان بن عبد الرحمن .

فتح الباب وهو يصيح : أخي حسان ! وتعانق الأخوان ، وأسرع بالدخول مخبرا أهل البيت وهو يصيح: عاد حسان يا أبي! عاد حسان يا أمي ! عاد حسان يا عبدالكريم .. حسان حي .. حسان حي!!

فقام الصياح والبكاء والدموع والفرح حتى فزع الجيران ، وكانت ليلة عجيبة من ليالي الشوق والأنس على اجتماع الشمل بعد طول غياب ، وفرح الجميع بعودة حسان ، وقضت الأسرة أياما تستقبل الأحباب والأصحاب والخلان ، وكلهم يستمعون لقصة وأخبار حسان ، وما جرى له في العراق وجزر البحر وعند ملك الصين ، ورأوا الطير الذهبي وسمعوا سحره ، وصنع عبد الرحمن وليمة كبيرة للتجار والجيران اشتهرت أخبارها في بلاد النيل ، وما أن يسمع قوم بأعجوبة الطير إلا وطلبوا سماعها وهم متعجبون من صنعته وحكاية صاحبه حسان ، فطار خبره في الآفاق حتى أن حاكم مصر طلب حسان لمشاهدة هذا الطير الذهبي ، فأخذه حسان إلى قصر الحاكم لبلاد مصر والسودان وما حولها من الأطراف ، فأعجب به كسائر الخلق ، فأهداه حسان للأمير الذي فرح بهذه الهدية فرحا شديدا ، وقبلها بكل امتنان، وبذلك تخلص حسان من إزعاج الناس والزائرين ؛ ولكن بعد أيام طلبه الحاكم ثانية ، فذهب لقصر السلطان فأخبره صاحب القصر أن الطير سكت عن الكلام وما عاد ينطق ، فسأله حسان هل عبث به أحد أو حاول فكه ؟ فذكر الأمير أن إحدى بناته حاولت فكه فأخرجت منه قطعة ثم أعادتها ، وبعدها لم يسمع له صوت ، فقص حسان للحاكم قصته مع هذا الطير وسر صناعته ، فتعجب الملك من حكاية حسان أكثر من إعجابه بحكاية الطير ، وهكذا انتهت أعجوبة هذا الطير، وما عاد الناس يسمعون عنه أخبارا وأحاديث إلا في الكتب والأقاصيص ، وهل حقا كان هذا الطير يضحك ويبكي ويحزن من يراه ويسمعه أم هو محض خيال ؟ جادت به أفكار الرواة لإثارة السامعين والشعار .. فهذه يا اخوتي قصة حسان والطير السحري الذي أتى به من بلاد الصين

واستقر في بلاد النيل في قصر الأمير بضعة أيام ، ثم مات حتى كأنه لم يكن هناك طير يتكلم عنه القصاص والرواة ، أما الأميرة بدور فكانت جميلة وأديبة وعاقلة ، والنساء يتحدثن عن حسنها في ذلك الزمان ، وكما ذكر الرواة للقصص والأخبار أنها ولدت لحسان سبعة من البنين والبنات ومضت السنون والسنوات وكبر الأولاد وإلى بلاد أمهم اشتاقوا ، فسافر بهم حسان إلى دمشق بعدما استقر بها أخوالهم الأمراء وكم فرحوا برؤية أختهم بدور بعد كل هذه السنوات ، وكان أخوها قد دخل في الشيخوخة وانتظار ساعة المات فعاتبها قائلا : أما تذكرتينا كل هذه السنوات أيتها العزيزة ولو حتى بكتاب فيه ذكريات .. فهؤلاء كل أبنائك يا أميرة البصرة ؟ فاعتذرت لأخيها بأعذب اللفظ وقالت : نعم يا أخي جئت لأزوج البنات فهل عندك أولاد صالحون ؟

فبكى الأمير وقال: ما بقي لأخيك على قيد الحياة إلا عبدالله ، ولكن أخاك الصغير عنده ولد في سن الزواج فأعطيه إحدى بناتك حتى تمتد الصلة يا أختي العزيزة .

أمضت بدور وذريتها سنة في دمشق ، وقد أنكحت ابنتها الكبرى من ابن أخيها الصغير ، وفي أثناء عودتها للديار المصرية مرضت بفلسطين وقضت نحبها ودفنت فيها ، وعاد حسان لمصر والحزن يغمره ، فلما وصل مصر أخبر أباه بموت الأميرة بدور في فلسطين ، وأنه زوج ابنته من ابن خال لها ، وعاش حسان سنوات قبل أن يفكر بالزواج من جديد .

واستغفر الله استغفارا كثيرا ، وأسأله العفو عن زلات النفس والقلم ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وهي مجرد قصة فيها التسلية والعبر، وهي خيال جادت به قريحة كاتب عاشق لمثل هذه الحكايات والنوادر ، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات ، وصلى الله على النبي الأمي الذي ذكره ما فات ، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الممات .

انتهت القصة

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز وولديها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

حسان والطير الذهبي

